الباب الثاني

دولة الإسلام

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}.

الحجرات ١٣

"المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم".

حديث شريف

لم تصل إلينا يوميات الحياة التي حييها الرسول الكريم، فهو لم يأمر بكتابتها، ولا بكتابة أقواله، حتى لاتختلط بكتاب الله الذي سجله وحفظه من أول لحظة نزل. لكن أفئدة جميع الصحابة وعيونهم كانت عليه إذا تكلم أو تصرف تبادرت آذانهم لتسمع كلماته، وأذهانهم لتفهم تصرفاته، حتى إذا حلق شعره تسابقوا يتوزعون شعراته، والقليلون الذين كتبوا من الصحابة كتبوا مقلين، والذين يؤثر عنهم بعض التفصيل في وصفه معدودون.

أما روايات حديثهن وسننه فكثرة كاثرة تولاها أصحابه، وهم عدول بتعديل الله ورسوله لهم.

أما الرواة عنهم، فقد بذل المسلمون في البحث عن حياتهم ليقبلوا رواياتهم ما لم تبذله أمة من جهد على طول تاريخ الأمم لأنهم ينقلون مصدرا من مصدري الدين هو سنة الرسول ﷺ ونهج حياته.

والمجتمع الذي سنعرض له الآن مجتمع (محمد والذين معه)، كما قال عنهم الله سبحانه، وسوف نشير إلى بعض تعاليمه.

وسنستصحب ما سبق من إيفاد رسول الله ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى المدينة ليعلما أهلها القرآن والإسلام. فرسول الله يصل إلى المدينة بعد تمهيد لقيام خير أمة أخرجت للناس. وسنجد المسجد مكانا لتنشئتها وهذا موضوع الفصل الأول، ولبناء الدولة الإسلامية لتبقى أبدا، وهذا موضوع الفصل الثاني.

وفي الفصلين – كما في سائر الكتاب – أوردنا أحاديث دون شرح، ووقائع دون أخرى. فهذا الكتاب مجرد عدسة صغيرة تستلفت النظر إلى بعض عظائم السيرة، لأعظم البشر.

الفصل الأول

في المسجد

"أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهي المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير الحديد". حديث شريف

أقام عليه الصلاة والسلام أياما بقباء على مشارف المدينة، بنى فيها مسجد قباء ولحق به علي بعد أن رد للناس ودائعهم ثم خرج صلى الله عليه وسلم على ناقته إلى المدينة فصلى الجمعة في مسجد في طريقه، فسألوه أن يقيم فيهم فكان يقول "خلوا الناقة فإنها مأمورة.

طلـــع "البـــدر" علينـــا مـــن ثنيـــات الـــوداع

وجـــب الشـــكر علينـــا مـــا دعـــا لله داع

أيهـــا المبعـــوث فينـــا جئـــت بـــالأمر المطـــاع

وهذا التشبيه الذي ارتجلته جمهرة "الأنصار" الفاهمة الملهمة، "بالبدر" الطالع، سنلقاه على لسان كل واصف لوجهه القادم برسالة من السماء. أما هو فقد أعظم جزاءهم وجزاء مدينتهم من قبل أن يدخلها فقال "أمرت بقرية تأكل القرى يقولون "يثرب" وهي "المدينة" تنفي خبثها كما ينفي الكير الحديد".

ولما أشرف عليها دعا ربه لها "اللهم إني لأحرم ما بين جبليها مثلما حرم إبراهيم مكة" ودعا أيضا (اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة).

وكان أهلها يلتمسون الإقامة فيهم كلما مر بدورهم فيكرر قوله "دعوا الناقة فإنها مأمورة"، حتى بركت في موضع المسجد الحالي، ثم قامت ومشت خطوات، ثم عادت إلى مكانها واستقرت، وبهذا ارتضى كل الناس منزله. وأخذ أبو أيوب الأنصاري رحله فحمله إلى داره. فلم يزل ساكنا

بها سبعة أشهر حتى تم بناء المسجد وحجرة له ولأم المؤمنين "سودة" ولحقت بحجرة "سودة" حجرة أم المؤمنين "عائشة".

ولم يسطح المسجد بل اكتفوا بثلاثة أذرع في أساسه وعضادتين للباب من الحجارة وبجذوع النخل للأعمدة، ولما اشتكوا الحر ظللوه فلما أمطر المطر وضعوا فوقه طينا. وكانت مساحته مائة ذراع في مائة ذراع أما الارتفاع فقامة الرجل وشيئا. وأما المنبر لما اتخذه سنة سبع فكان من ثلاث درجات: القعدة ودرجتين.

وان عليه الصلاة والسلام يشارك في أعمال البناء فيحمل اللبن في ثيابه ويقول: "هذا الحمال لا حمال خيبر، هذا أبر ربنا وأطهر"،يقصد ما يحمل من تمر خيبر، لاشتهاره بالجودة، ويقول: "اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة".

وظل المسجد، إذا جاءت العتمة، يضاء بسعف النخل، حتى إذا قدم تميم الداري المدينة جاءها بقناديل وزيت وحبال، فعلقها بسواري المسجد، فدعا له صلى الله عليه وسلم بقوله: "نورت مسجدنا نور الله عليك".

وبارك رسول الله الصلاة بمسجده فقال: "صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام".

وبقى حائط القبلة الأولى في مؤخرة المسجد بعد تغيير القبلة، فسقف وأطلق على جداره "الصفة" يأوى إليها فقراء المسلمين من المهاجرين أو أهل البوادي، يكثرون تارة ويقلون أخرى ومنهم من يعمل إذا وجد عملا ومنهم من يتزوج فيبرحها.

وكان الغالب عليهم الحاجة. فكان رسول الله يبعث إليهم بما عنده. ويعلمهم عبادة بن الصامت (أحد النقباء) القرآن والكتابة، فصاروا رهبان الليل وفرسان النهار. وكان صلى الله عليه وسلم يوزعهم على الصحابة فريقا فريقا، ومن يبقى يصطحبه ليؤاكله.. حتى جاء الله بالغنى.

ودخل بعائشة أم المؤمنين في شوال سنة ٢، وكلما بنى بزوجة أضاف حجرة في أرض مجاورة يتحول له عنها حارثة بن النعمان. والحجرات من جريدة مطين أو حجارة مرضومة بعضها فوق بعض.

وفي ربيع الأول سنة خمس رجع من غزوة دومة الجندل فوجد أم المؤمنين (أم سلمة) بنت حجرتها بطوب مصنوع من اللبن فدخل عليها أول نسائه وقال: "ما هذا البناء؟" قالت: "أردت أن أكف أبصار الناس يا رسول الله" قال: "يا أم سلمة إن شر ماذهب فيه مال المسلم البنيان".

وأصبح المسجد مقر إدارة الدولة التي يقيمها ومدرسة للمجتمع الذي يبنيه.

يتحلق حوله فيه رجالات الدولة وأفراد الجماعة للصلاة وهي عمود الدين. وأوقاتها دعوات للجماعة، فرسول الله لا يضيع ساعة في غير تعليم أو تنظيم أو إملاء ما ينزل من وحي السماء ليتلوه صحبه ويفهموه ويحفظوه ويعملوا به.

١- المؤاخاة بين الهاجرين والأنصار ومعاهدة اليهود:

تلاحقت الأعمال الخالدة الأثر في الإسلام، ففي العام الأول:

غير المؤاخاة التي كانت بين المسلمين بمكة، فصيرها بين المهاجرين من مكة وبين "الأنصار" بالمدينة. فتآخوا على الحق والمساواة فصاروا يتوارثون حتى نزل قوله تعالى {وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله}، ودامت المؤاخاة فيما عدا ذلك أداة تعاون صادق في المال والأعمال في الدنيا، وائتمار بالمعروف وتناه عن المنكر ونصح لكل مسلم.

وأصبح المهاجرون يشركون الأنصار بالعمل في زراعاتهم ليعيشوا من عمل أنفسهم حتى أغناهم الله.

وصاروا يتواصون بالحق والصبر وعمل الصالحات كلما افترقوا فيقرأ المفترقان منهم سورة العصر. ليعملوا الصالحات ويتواصوا بالحق والصبر حتى ليروي واحد منهم: كنا على عهد رسول الله نعد الرياء الشرك الأصغر.

كان أبو بكر أخا لعمر في مؤاخاة مكة، فصار أخا لخارجة بن زيد من الأنصار، وصار عمر أخا لمعاذ بن عفراء من الأنصار، وأصبح عبد الرحمن بن عوف أخا لسعد بن الربيع...

وزادت المؤاخاة وثاقة بوجوده صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، حتى لنسمع سعد بن الربيع – وكان ذا مال وله زوجتان – يبلغ بالمؤاخاة أخص شئونه إذ يعرض على عبد الرحمن أن يقاسمه ماله وأن يطلق إحدى زوجتيه ليتزوج منها، قال لا ولكن دلني على السوق... وتاجر فلم يمض زمن حتى تزوج. وراح يقول لرسول الله: مهرت زوجتي وزن نواة ذهبا!

ونسمع سلمان الفارسي وقد آخى رسول الله بينه وبين أبي الدرداء فأمسيا فرسي رهان في الحكمة والمزهد – يتناصحان مخافة أن يخرج الزهد أحدهما عن حدوده، زار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة (أي تلبس لباس الخدمة) فقال لها: ماشأنك؟ فأجابت "أخوك أبو الدرداء لاحاجة له في الدنيا" فلما جاء أبو الدرداء صنع له طعاما فقال: "إني صائم" فقال سلمان: "ما أنا بآكل حتى تأكل"، فلماجن الليل ذهب أبو الدرداء يقوم الليل، فقال سلمان نم فنام ثم هم بأن يقوم الليل، فقال سلمان:"نم". فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن.. فصليا فقال له سلمان:"إن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا فأعط كل ذي حقه حقه..".

وبهذا ذكر أبا الدرداء حق نفسه وأهله وأخبر سلمان النبي صلى الله عليه وسلم فقال (صدق سلمان) مثلما قال لابن مظعون (وإن لأهلك حقا).

وأتبع عليه الصلاة والسلام هذه المؤاخاة المثلى بمعاهدة بين المسلمين واليهود بالمدينة وقد نزحوا من الشام إليها وإلى بعض بلدان الحجاز بعد أن أخمد الامبراطور تيتوس ثورتهم سنة ٧٠م – فكان منهم بنو قينقاع في داخل المدينة، ولهم سبعمائة محارب. وبنو النضير في جوارها، وبنو قريظة على حدودها. وللأولين محاربون كبني قينقاع ولبني قريظة أكثر، وقد بنوا لأنفسهم حصونا وآطاما بلغت تسعة وخمسين.

ولما قدم رسول الله أسلم من اليهود تسعة وثلاثون نفسا منهم عبد الله بن سلام. وكان الأوس منتشرين في عوالي المدينة والخزرج – وهم أكثر عددا – في أسافلها. وسيجتمع لرسول الله من القبيلتين العربيتين يوم فتح مكة أربعة آلاف دارع هم "كتيبة الأنصار" الشهيرة، فلقد كان صلى الله عليه وسلم إذا استحر القتال يقف تحت رايتهم.

٢- العلم والتعليم:

(أ) والمجلس بالمجسد عظيم بالخلق العظيم الذي وصف الله به صاحبه. من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، طويل السكت، إذا تكلم فبجوامع الكلم – يشتار الجالسون جناه، ويريحون ريح الجنة شيبا وشبانا بمرآة صاحبه، أو بالصلاة وراءه أو بسماعه أو سماع أخباره. فإنما بعثه الله بالهدى والرحمة وشفاء الصدور. وهذا هو الإصلاح الذي يتولى به هؤلاء الرجال لينقلوه إلى العالم.

كان أول وحي نزل من السماء يأمره أن يقرأ بقلب المؤمن وعينيه اسم الله الخالق الذي علم الإنسان ما لم يعلم، ليعبد الله عن فهم وليخلفه في أرضه بعلم وإدراك لآثاره الدالة عليه ومحاولة لا تنقطع لإدراك ما لم يعلم، لتنفتح للعقل مغاليق التقدم، والرسول ينص على ذلك صريحا بقوله: "من ظن أن العلم له غاية فقد بخسه ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله بها حيث يقول: {وما أوتيتم من العلم إلا قليلا}".

والإسلام يمتاز بأنه يعرض الدين مشفوعا ببراهين حاسمة، من القرآن وعمل الرسول وقوله، وهدي الفطرة والعقل والإحساس أي الاستقراء بالحواس. وأصول الفكر لا تتعلق بالعبادات وحدها فهي محددة، وإنما عظم عملها في علاقات الإنسان بالأشياء والأشخاص والعلوم لتطبيق أوامر الله ونواهيه في صلاح العالم.

ومكن الله لرسوله في تبليغ الرسالة بما خصها من أبعاد: من طول عصر الرسالة، وضخامة العظائم التي قام بها في العالم، وكثرة الصحابة وشهود آلاف منهم للسنن، ومشاركتهم في وقائع السلم والحرب والعبادات والمعاملات، وفي آداب الدنيا والعمل للآخرة.

وكانت ذات الرسول هي العنصر الشخصي الذي يجتذب الأنفس بالقرآن العظيم وشرحه والعمل به في كل أمر، وهو معنى يتبادر للذهن من قول أم المؤمنين عائشة: "كان خلقه القرآن"، وكان صلى الله عليه وسلم يعلن أنه بعث معلما.

وفي أول انتصار له في "بدر"، جعل من فداء الأسرى أن يعلموا المسلمين الكتابة والقراءة.

وأول كلمة في القرآن (اقرأ) وأول قسم فيه {ن. والقلم وما يسطرون}، وقد نزلت في الوحي الثاني.

و"طلب العلم فريضة على كل مسلم" كما قال صلى الله عليه وسلم.

جاء مجلسه يوما ثلاثة نفر فرأى أحدهم فرجة في الصف فجلس فيها، وجلس الثاني خلف الحلقة، وأدبر الثالث ذاهبا. قال صلى الله عليه وسلم "ألا أخبركم عن النفر الثلاثة. أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه".

ولما قال صلى الله عليه وسلم: "تناصحوا في العلم فإن خيانة أحدكم في علمه كخيانة أحدكم في ماله". كان يرفع العلم والأمانة وينزل بالتفريط فيهما إلى حضيض الخيانة. يستوي في ذلك من يتولى إلقاءه أو نقله أو تلقيه. والدين النصيحة.

(ب) ورفع الفقه درجات لعموم فائدته للناس فمازه من العبادة التي لا ينتفع بها غير صاحبها، وقال: "فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد"، وقال: "يسير الفقه خير من كثير العبادة".

والفقه هو "الفهم" في الدين وغيره من كل العلوم. ونبه على واجب العمل بالعلم فقال: "تعلموا ما شئتم فإن الله لا يأجركم على العلم حتى تعملوا به" يستوي في ذلك العمل في إصلاح النفس أو الغير ولذلك كان الصحابة يحفظون عشر آيات يفسرها لهم ثم ينتقلون لغيرها وهكذا.

قال الإمام مالك للأمين والمأمون إذ كانا يتلقيان الحديث عليه وطلب أحدهما أن يكتب بماء الذهب حديثا أعجبه "لا تكتبه بماء الذهب ولكن اعمل به". وبلغ الورع بأبي ذر وهو المجاهد الجلد أن يقول لرسول الله: "إني أخاف أن أتعلم القرآن ولا أعمل به"، ويجيبه نبي الرحمة: "لا يعذب الله قلبا أسكنه القرآن".

لذلك جعل طلب العلم فريضة وجعل التعليم فريضة مثلها. وتوعد القاعدين عنهما بالعقوبة.خطب يوما فكان ما قال: "ما بال أقوام لا يفقهون إخوانهم ولا يتفقهون.. والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم وينهونهم... وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون، أو لأعاجلنهم بالعقوبة".

ثم نزل- فقال قوم: "من ترونه عني بهؤلاء؟".. قالوا: الأشعريين هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب. فبلغ ذلك الأشعريين فأتوه فقالوا يا رسول الله.. ذكرت قوما بخير وذكرتنا بشر.. يا رسول الله أنفطن غيرنا؟ وأعاد قوله عليهم فأعادوا قولهم، أنفطن غيرنا؟ فقاله أيضا.. فقالوا أمهلنا سنة فأمهلهم سنة ليفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم ثم قرأ صلى الله عليه وسلم

{لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون}.

ولم يترك المعلمين والمتعلمين دون تهذيب فقال للغالين: "ألا هلك المتنطعون". وقال عن المتعالين: "آفة العلم الخيلاء".

وحث على استمرار العلم والعلماء في الأمة فقال:"إن الله لا يقبض العلم انتزاعا، ولكن يقبضه بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا، فسئلوا فأفتوا بلا علم وأضلوا".

(ج) "وعلمهم التعليم ذاته. فخيره ما كان عمليا يدرك الرائي هديه بسمعه وبصره وقلبه ويهتدي بالتقوى إلى ما لا يعلمه أو لا يراه. وعلى هذا كانت حياته بطولها درسا واحدا هو الإسلام يعلمه الناس ليعملوا به وله. وهو يقول للناس "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم".

جاءه أعرابي يسأله عن أوقات الصلاة فقال له عليه الصلاة والسلام: "صل اليوم والغداة معنا، ثم صلى رسول الله بصحبه جميع الصلوات في أوائل أوقاتها في اليوم الأول.. وصلاها في أواخر أوقاتها في اليوم التالي. ثم سأل: "أين السائل عن الأوقات؟"، قال الرجل: هأنذا يا رسول الله، فقال له: "ما بين هذين وقت".

لقد تكلم صلى الله عليه وسلم أقل كلام، وفعل في يوم ما يتعلمه الرجل في أيام، ليبقى في نفسه أبدا، وينقله إلى الناس محققا عن صاحب الشريعة.

وتفصيل الركعات وكمها وكيفها وصورة أدائها ليس له بيان في القرآن إلا ما ورد عن الركوع والسجود. فلم يعلم المسلمون كيف وكم يركعون ويسجدون ويدعون إلا من السنة، وقد جاء بيانها من النبي بكل أسلوب (قولي) لينقل عنه، و(عملي) ليصنع مثله.

(د) والتعليم أسلوب ومضمون: أم صحبه في صلاة فعطس رجل فشمته آخر فجعل المصلون يرمونه بأبصارهم. قال لهم: ما لكم تنظرون إلي!! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم!!!، فسكت. فلما سلم رسول الله انتظر الرجل أن يحاسبه أو يؤنبه، فما نهره ولا عاتبه، بل تلطف بعلمه بقوله: "إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شئ من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن".

(هـ) يجيئه صفوان بن ثمال يقول له جئت لأطلب العلم فيقول له صلى الله عليه وسلم: "مرحبا بطالب العلم إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها".

ويقول: "من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده".

ويحمل قارئ القرآن أعلى التبعات بقوله "يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله عز وجل، فإن كانوا في القراءة سواء، فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في العلم بالسنة سواء، فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء، فأكبرهم سنا، ولا يئوم رجل في بيته، ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه".

والقرآن معجزته الخالدة ليدخل الناس الدين جيلا بعد جيل والرسول يقول: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة".

وستستجيب السماء للدعاء، فيدخل في الإيمان قوم بعد قوم. ونحن الآن نشهد هجرة صنوف من "العلماء" من شتى العقائد إلى عقيدة الإسلام، والله تعالى يقول في سورة الحج: {إن الله يدافع عن الذين آمنوا..} وأي دفاع أظهر من اجتذاب الناس للإسلام، والمسلمون أفراق يتخاصمون، لا تحميهم أموال تذهب أباديد من بين أيدهم، وإنما يحميهم القرآن الباقي على الزمان، وأصل الإيمان بالله ورسوله والقضاء خيره وشره والبعث والحساب.

* * *

(و) والرسول الكريم يعرض أركان الدين في كلمات موجزة لتحفظ وتنقل عنه: "بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت". أما الإيمان أو الشهادتان وهما أصل الإسلام كله فبالتسليم الكامل لله ورسوله ليتحرر المسلم من العبودية لغير الله.فلا يهاب أحدا. وتكون له العزة وإن كان ضعيفا، والسعة وإن كان في ضيق، ويستنكر المنكر فيغيره بيده أو بلسانه ما استطاع وإلا فبقلبه، ويضيف الرسول صلى الله عليه وسلم: "فمن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل" فمن لا يستنكر المنكر بقلبه يموت الإسلام في ضميره.

أما الصلاة فإنا نقرأ عنها ما يقول ربيعة بن كعب الأسلمي: "كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي سل قلت أسألك مرافقتك في الجنة، قال: "أو غير ذلك؟"، قلت هو ذاك. قال: "فأعني على نفسك بكثرة السجود"، وكثرة السجود هي كثرة الصلاة. وما أفعل النصيحة إذ تكنون الوسيلة لمصاحبة رسول الله في الجنة!

والأمر كذلك في الزكاة يغرسها في أنفسهم بجوامع الكلم، على مدار الحياة وبالأمثال من قوله عمله. يقول:

"سبق درهم مائة ألف درهم".

قال رجل: "وكيف ذلك يا رسول الله"؟

قال: "رجل له مال كثير أخذ من عرضه مائة ألف درهم تصدق بها، ورجل ليس له إلا درهمان أخذ أحدهما فتصدق به"، ويناشد المسلمين ألا يهدروا معاني الكلمات بالتزيد. فالفضل لمن يعطي لا لمن يتكلم. وفي ذلك قوله: "طوبى لمن أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله".

وتعاليمه في الصوم، تقرع الآذان والأذهان: "من صام رمضان ثم أتبعه ستا من شوال كان كصيام الدهر": فهذا الحساب للدهر معجزة بيان لا تبرح الأذهان. فتفسير الحديث أن الله تعالى يقول: "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها" فرمضان شهر يعدل عشرة والأيام الستة تعدل ستين. فهذان شهران يضافان إلى العشرة، وهذا عام كامل كل عام، أي دهر بتمامه.

والصوم مدرسة في الصبر والشكر والجلادة والحفاظ على الأمة.

وحسبك بقولين من جوامع كلمه "كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش". و"من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه". وقول الزور، والعمل به، هما المنكر جميعه.

والحج مدرسة جامعة للمكرمات: فيها الصلاة وفيها إطعام للهدي وإعظام للبيت الحرام، ولمبدأ ظهور الإسلام، وهو مؤتمر سنوي عام يرجع منه الملايين متطهرين تائبين عابدين – ولقد أذن النبي في الناس بالحج وحج بهم ليشهدوا مناسكه وقال لهم: "خذوا عني مناسككم".

٣- مع الصحابة:

وهو – عليه الصلاة والسلام يؤم أصحابه في الصلوات الخمس وهم حوله تشرئب أفهامهم لتتلقى هديه، وقد كرمهم به الله تعالى فجعلهم أول من يتلقاه جملة وتفصيلا. أما على الجملة فهم مطالبون بأن يكونوا دائما مع الله، فهو يراهم وإن كانوا لا يرونه. والرسول يقول لهم:

"يقول الله عز وجل: أنا مع ظن عبدي بي. وأنا معه حين يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا، وإن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة".

وأما على التفصيل ففيما تبصر به أعينهم من عمله أو يعملون به من أوامره، وقد جعل الله لهم الدرجة العالية بقوله تعالى في آخر سورة الفتح حيث تختم مجموعة المعجزات التي أفصحت عنها السورة وحققها الله لهم في مواعيدها المحددة: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل، كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما}.

إنهم مبعوثو الرسول إلى العالم في عصرهم وفيما بعده. يقدمهم للأجيال بقوله: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم".

وهذان الوصفان من الله ورسوله يغنيان عن أي بيان عنهم، ويقرران الصدق والصحة لما نقلوه إلى الإنسانية من مشاهداتهم، آحادا أو جماعات حيوا حياتهم بالقرآن والسنة مع الرسول الكريم نحوا من ربع قرن، يكتمون حسناتهم لأن من صنعوها في سبيله مطلع عليها، ويخافون ألا تكون كافية.

يقول عمر بن إسحاق: "لمن أدركت من الصحابة أكثر ممن سبقني منهم. فما رأيت قوما أيسر سيرة ولا أقل تشديدا منهم".. فهذه سنة صاحبهم صلى الله عليه وسلم في الرحمة.

ولما طلب أبو عمرة الثقفي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهما في المسجد أن يقول له في الإسلام قولا لا يسأل بعده أحدا غيره، أجمل له الأمر في كلمات خمس كافية لإصلاح العالم: "قل آمنت بالله ثم استقم"، وما أيسري أن يفهم المرء كيف يستقيم. وهو يزيد اليسر بقوله "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم".

والله تعالى يقول: {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون}.

سأله سائل أي الأعمال أفضل فقال: "قراءة القرآن في الصلاة، ثم قراءة القرآن في غير الصلاة"، فلا عجب أن تتردد بالقرآن في سماء المدينة وأجوائها موجات أصوات الصحابة تقدس الله لتمتد منه إلى بقاع العالم طوال عمر الزمان.

يخرج عليهم – وهم جلوس – فلا يرفع أحد بصره إلا أبو بكر وعمر، ينظر إليهما ويبتسم وينظران إليه ويبتسمان. والجميع يهابونه فلا يسألونه، فيحبون أن يأتي الأعرابي من البادية فيسأله.

لا يقولون له يا محمد بل يقولون يا نبي الله يا رسول الله، فالله قد أدبهم بقوله: {لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا}.

ولما نزلت سورة الحجرات وفيها {يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون} وكان ثابت بن قيس خطيب النبي جهير الصوت، لزم بيته مخافة أن يحبط عمله واعتذر للنبي فعذره وبشره بالجنة.

أما أبو بكر وعمر فصارا أخفض صوتا، وكان يشجعهما بقوله: "قولا فإني فيما لم يوح إلي مثلكما". ولما أراد يوما أن يستعمل رجلا من وفود بني تميم أوصى أبو بكر برجل وأوصى عمر برجل فقال لهما "أما إنكما لو اجتمعتما لأخذت برأيكما ولكنكما تختلفان علي أحيانا"(٢٤).

فهو يعلن التزامه بالرأي الجميع ولا يضيق بالاختلاف، بل قد يستحبه حسب الظروف.

تطوع أبو بكر بكل ماله فقبله وتطوع عمر بنصف ماله فقبله ولما كفر أبو لبابة وكعب بن مالك عن تقصير الأول وتخلف الثاني بأن عزما أن يتخليا عن كل ما لهما للفقراء نصح كلا منهما بما يجمل به.

وقال أبو طلحة يا رسول الله إني أسمع الله يقول: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} وإن أحب أموالي إلي بير حاء (ضيعة له) وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها حيث أراك الله، قال صلى الله عليه وسلم: "بخ بخ ذلك مال رباح"، وأمره أن يجعلها لذوي القربى فقسمها بين بني عمه. وباع حسان بن ثابت نصيبه منها في عهد معاوية بصاع من الدراهم وبنى عليه معاوية قصر حديلة.

---

(٢٤) وهما يتصدران العشرة الذين بشرهم بالجنة والباقون: عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد بن نفيل.

ورسول الله بالمؤمنين وبالبشر جميعا رءوف رحيم: إذا خطبهم عن الحرب نبههم على ألا يشتهوا الصدام، وأمرهم بدعاء الله ليكف عنهم العدو وبالصبر يقول "يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو.. ولا تنازعوا فتفشلوا.. وقولوا اللهم نحن عبيدك وهم عبادك ونواصيهم بيدك، وإنما تفنيهم أنت..".

فإذا خطب محذرا أو منذرا بيوم الحساب، اشتد غضبه وعلا صوته، واحمرت عيناه وانتفخت أوداجه، كأنه منذر جيش يقول صبحكم "أغار عليكم في الصباح"، مساكم "أغار في المساء".

ومن الخطب ما يطول إذا دعت الدواعي. روى عمر بن الخطاب: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت صلاة الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت صلاة العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس فأخبرنا بما كان وبما هو كائن فأعلمنا أحفظنا. ولا جرم أن توفيقات عمر الخالدة كانت من آثار ما حفظه.

وهو لا يسرد كسرد الناس بل كلماته كالنقد الذي يحصى ويعد. وقد يحيط دين الله كله بكلمات معدودات مثل "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد".

والوحي يؤيده بآياته وبراهينه وجنود لا يراها الناس وبالملائكة وبالحكمة، وبالنبوءات التي تتحقق فتملأ أعين الناس وتبهر عقولهم وحواسهم، فلم يخبر عن أمر سيحدث إلا حدث، وما أكثر ما أخبر به، وبالقسم العظيم بآيات الله في السموات والأرض وبقرآنه سبحانه. وكان تأييد السماء الذي لم يتخلف استجابة لذكر الرسول الذي لا يتوقف، والله تعالى يقول {فاذكروني أذكركم}.

* * *

الذكر الدائم: كان ذكر الله ودعاؤه طيلة حياة الرسول شكرا وذكرا وتعليما لمن حوله: في الشراب والطعام، وفي الصحو والمنام، والمقام والترحال، وفي الصحة والمرض. يقول لصاحبه أبي رزين: "إذا خلوت فحرك لسانك بذكر الله، فإنك لا تزال في صلاة ماذكرت ربك".

ويقول لأصحابه رضي الله عنهم: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"، فالقرآن هو الذكر الحكيم.

وكل طاعة لله ذكر، والرسول يقول: "من أطاع الله فقد ذكر الله، وإن قلت صلاته وتلاوته للقرآن". إنه دائما مع الله وهو أكثر الناس صلاة، ولا يقدر على نوافله غيره. ولا يلحق به أحد في دوام ذكره ودعائه.

إليك أمثالا ما يقول: يخرج للصلاة بعد الأذان فيقول بين ما يقول: "اللهم اجعل في قلبي نورا وعلى لساني نورا، واجعل في سمعي نورا، واجعل في بصري نورا، واجعل من خلفي نورا ومن أمامي نورا، اللهم أعطني نورا"، وأعطاه الله سؤله، فقال تعالى عنه: {وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا}. وهذان الوصفان يكشفان عن صميم نجاح الدعوة والداعية.

يصف علي بعض صلاته ودعائه فيقول: إذا ركع يقول في ركوعه: "اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت. خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي"، وإذا رفع رأسه من الركوع يقول: "سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد، حمدا ملء السموات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شئ بعد".

وأي حجم من الأحجام أكبر في العالمين أجمع من ذلك إلا ما يشاء الخالق جل شأنه!

ويقول في سجوده: "اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت. سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق فيه سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين".

كل أولئك وأمثاله في عشرات المرات أو أكثر، في الفروض والنوافل في اليوم الواحد يريك الاعتماد الكامل على الله قدر ما تتكرر أنفاس الحياة وتستمر.

وهو إذ يأوي إلى الفراش يقول: "باسمك اللهم أحيا وأموت"، أو يقول: "اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاها لك مماتها ومحياها. إن أحييتها فاحفظها، وأن أمتها فاغفر لها إني أسألك العافية" وهو دائم الدعاء في الأسفار يقول: "اللهم إليك توجهت وبك اعتصمت اكفين ما أهمني وما لا أهتم به، اللهم زودني التقوى ووجهني للخير أينما توجهت، واغفر لي ذنبي، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والولد".

ويقول للناس كافة: "توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة" وما ذلك لذنب، ولا العد علامة الحصر، وإنما هو استغفار للأمة.. وما أجدرها باستغفاره لها.

وإذا فرغ من طعامه قال: "الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين".

وإذا أفطر من صوم قال: "اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت"، والحياة كلها رزق الله. فرسوله يدعو: "اللهم اغنني بحلالك عن حرامك، واغنني بفضلك عمن سواك".

وإذا أوى إلى فراشه تعوذ بالمعوذتين وقرأ سورة الإخلاص ونفث في يديه، فتكون آخر سور المصحف آخر عهده باليقظة، ولما اشتكى في مرضه أمر أم المؤمنين عائشة أن تفعل ذلك، وكان يفعله، إذا مرض أهله.

جاءه رجل يقول أريد سفرا فزودني، فدعا له بقوله: "زودك الله التقوى"، قال الرجل زدني قال: "وغفر ذنبك"، قال الرجل زدني قال: "ويسر لك الخير حيثما كنت".

وكان يودع الصاحب فيقول له: "أستودع الله دينك وأمانتك وخواتم عملك".

والذي يقرأ صفحات حياته اليومية يقرأ التفسير الأول والأعظم للقرآن بالحياة الواقعة لأعظم البشر، يهدي صحبه، والعالم بعدهم، بمنطقه وصمته، وأمره ونهيه وعمله، في مجتمع ينشأ على عينه تنشئة الأنموذج، يريدهم جميعا أن يكونوا متراحمين متعاونين:

جاءه رجل يشكو – في عام مخمصة – أنه مر ببستان بالمدينة فأكل من سنابله وحمل في ثوبه منه. فجاء صاحب البستان فضربه وأخذ ثوبه، قال صلى الله عليه وسلم للضارب: "ما علمته إذ كان جاهلا، ولا أطعمته إذ كان جائعا" وأمر فردوا إليه ثوبه وأمر له بستين صاعا من طعام أو نصفها. وهكذا ترك المخطئ الجائع. وعلم صاحب بستان واجبه: فللمار بالبستان أن يأكل ما أكل وليس لصاحب البستان ضربه إذ حمل ما حمل، وإنما عليه تعليمه. ومن التكافل يأكل حاجته ولا يحمل.

وهم – بعد – في عام مخمصة تكفل فيها رئيس الدولة بأمر الرجل فأعطاه ما أغناه، ليصير واحدا من صحبه لا عدوا لبعض قومه، أو لأهل المدينة خاصة.

٤– حب الوطن من الإيمان:

وحب المدينة من الإيمان – دعا لها فأمست مثابة المسلمين وبرئت من كل خبث، فمثلت المجتمع الرباني على الأرض وكان صلى الله عليه وسلم يسرع بالرجوع إليها كلما بارحها. روت عائشة أنه كان إذا اشتكى إنسان أو كانت به قرحة أو جرح، قال النبي باصبعه هكذا (تعني وضعها على الأرض...): ثم رفعها وقال "بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا ليشفى به سقيمنا بإذن ربنا"، فرسول الله ينفث (ينفخ) في إصبع وضعها على تربة المدينة (عاصمة الإسلام) ويتجه بالرجاء إلى ربه بعد أن يمس أرض المدينة التي باركها ربه بدعائه لها.

يقول (الإمام المجاهد عبد الحميد بن باديس) في أواخر القرن الهجري الرابع عشر "إن القرآن كتاب الدهر، فكثير من فنون الكتاب والسنة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع، لم نفهم أسرارها ومغزاها إلا بتعاقب الأزمنة وظهور ما يصدقها من سنن الله في الكون.. ورأينا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم في وصف القرآن: "لا تنقضي عجائبه" والعلماء... يترقبون من سنن الله في الكون وتدبيره في الاجتماع ما يكشف لهم حقائقها ويكلون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم. وقد أثر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن قولهم في بعض هذه الآيات: لم يأت مصداق تأويلها بعد.. ولو أنا عرضنا حديث التربة والريقة على طائفة مختلفة الأذواق... فماذا تراهم يقولون؟

يقول المتخلف القاصر: تربة المدينة بريق النبي صلى الله عليه وسلم شفاء ما بعده شفاء.

ويقول الطبيب المستغرب... ويقول الكيماوي... ويقول الروحانيون... ويقول ذوو المنازع القومية والوطنية ولو كانوا يدينون بالوثنية: آمنا بأن محمدا رسول الله علم النسا من قبل أربعة عشر قرنا أن تربة الوطن معجونة بريق أبنائه تشفي من القروح والجروح، ليربط بين تربته وقلوبهم عقدا من المحبة والإخلاص له، وليؤكد معنى الحفاظ عليه والاحتفاظ به.

وليقرر لهم من منن الوطن منة كانوا عنها غافلين، فقد كانوا يعلمون من علم الفطرة أن تربة الوطن تغذي وتروي، فجاءهم من علم النبوة أنها تشفي... ولقد زادنا إيمانا به بعد إيمان أنه يقول: "تربة أرضنا برية بعضنا"، ولم يقل تربة الأرض بريق بني آدم. فليس السر في تربة وريق ومرض. ولكن السر في أرضنا وبعضنا ومريضا فهذه – والله ربنا – صخرة الأساس في بناء الوطنية والقومية".

وذكر الله يسبغ على الأنفس السكينة والطمأنينة، والله ينزل من القرآن ما هو شفاء[٢٥] ورحمة. والقرآن يثبت القوة في الفرد والجماعة، وهذه حقيقة أثبتتها القرون، وأثبتها المسلمون بدمائهم

---

(٢٥) روى أبو سعيد الخدري انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم،فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شئ لا ينفعه شئ، فقال بعضهم لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شئ، فأتوهم فقالوا: أيها الرهط إن سيدنا لدغ وسعينا له بكل شئ لا ينفعه شئ. فهل عند أحد منكم من شئ؟ فقال أحدهم نعم... ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلا. فصالحوهم على قطيع من الغنم فانطلق يتفل عليه ويقرأ {الحمد لله رب العالمين}، فكأنما أنشط من عقال فانطلق يمشي وما به قلبة (علة) قال: فأوفى لهم جعلهم.. فقال بعضهم اقسموا فقال الذي رقى لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا فقدموا

ودماء العدو، وكلما صدقوا في حرب أو سلم، وأثبتتها المؤتمرات العلمية للمسلمين وغير المسلمين.

obeikandl.com

على رسول الله فذكروا فقال: "ما يدريك أنها رقية؟"، ثم قال: "قد أصبتم اقسموا واضربوا لي معكم سهما" فضحك رسول الله ﷺ.

وجاءه أعرابي يقول: يا رسول الله: أنتداوى؟ قال "نعم فإن الله تعالى لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء" وسئل أرأيت من رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها. هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال "هي من قدر الله".

٥- تجميل الأشياء والأسماء:

وكما يكمل دينهم، يجمل دنياهم، ليجري قضاء الله في تكريمهم وإصلاح ظاهرهم، كما أصلح الدين باطنهم.

يقول تعالى {ولقد كرمنا بني آدم}، ويقول {وصوركم فأحسن صوركم}، ويقول للإنسان {ما غرك بربك الكريم. الذي خلقك فسواك فعدلك}، ورسول الله يقول "إن الله جميل يحب الجمال"، ويشيع الكرامة والبشرى والفأل الحسن في آفاق مجتمعه، ويجمعه على آداب الله الذي أدبه فأحسن تأديبه.. والله تعالى هو الذي روع أبا لهب: إذ كنى به عبد العزى (عم النبي)، وأفزع امرأته إذ خصها بوصف (حمالة الحطب)، ورسول الله هو الذي جعل أبا جهل سخرة بكنيته، فنسى الناس اسمه (عمرو بن هشام المخزومي). فالأسماء والكنى قد تكون آفات أو عاهات. والإسلام يكرم المسلم، ويزيده حسنا بحسن الاسم أو الكنية إن لزم.

وأول ما يبده السمع والبصر من الشئ اسمه أو رسمه (أو كنيته) فهذه أدوات التعريف به. ولكل منها أثر في صاحبه أو في الناس: والأسماء الحسنة حسنات تجري على الألسنة، تعطر الذكر وتسترعى النظر، وفيها الفأل الحسن والله قد خار لرسوله فسماه جده "محمدا".

بدأ رسول الله بعاصمته فسماها المدينة بدلا من يثرب. وكان اسمها المنقوش على آثار دولتي السبئيين والمعينيين بالآرامية في التاريخ القديم (مدنتا) بمعنى الحمى ثم صار يثرب. والتثريب في العربية استقصاء في التعييبن، فكان طبيعيا أن يطيب رسول الله اسمها لتصبح طابة أو طيبة ثم "المدينة".

من بعد اسم العاصمة أخذ صلى الله عليه وسلم يجمل الأسماء، للرجال والنساء وغيرهم، ويجعل للأبناء حقا على الآباء أن يحسنوا أسماءهم وإليك بعض أمثال:

(أ) يجيئه سادن سابق لصنم "سواع" فيسأله (ما اسمك)؟ ويجيب غاو بن ظالم! فيقول له: "بل أنت راشد بن عبد الله".

(ب) وتجئ وفود جهينة فيقول لأحدهم واسمه عبد العزى (أنت عبد الله).

(ج) وقال لبعض (من أنتم؟) قالوا: بنو غيان – قال (أنتم بنو رشدان)، وكان اسم واديهم غوى فسماه رشدا.

(د) ويسأل وافد بني الحارث بإسلامهم عن اسمه فيقول: قيوم فيصححه صلى الله عليه وسلم إلى عبد القيوم فالله – وحده – لا إله إلا هو الحي القيوم.

(هـ) وكان اسم "كثير" بن الصلت قليل بن الصلت فكثره فسماه "كثيرا".

(و) ويسأل رجلا من أنت فيجيبه قاطع بن سارق فيسأله عن حاله وعياله فيجيبه أن له ثمانية عشر ذكرا وبنتا سماها (صفرة)، فيقول له: "بل أنت أبو صفرة" وهكذا يكنيه ببنته لا بواحد من الثمانية عشر، فكم كرم عليه الصلاة والسلام البنات، وسنرى في شريعته وحياته كم أعطى النساء من حقوق وخصهن بتوصيات.

(ز) أما زوج عمر بن الخطاب فكانت تسمى "عاصية" بنت عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح فسماها عليه الصلاة والسلام (أم عاصم) لتخل باليمن على عمر وآله، فسيكون لعمر منها ابن يسميه (عاصم)، وهو أبو (أم عاصم) أم عمر بن عبد العزيز خامس الراشدين.

(ح) وكان اسم (مسلم) بن العلاء الحضرمي (العاصي) فغيره صلى الله عليه وسلم.

(ط) ويدخل رسول الله على فاطمة الزهراء إذ تضع ويلدها الأول وبطولات زوجها في "الحرب" تدوي في أرجاء جزيرة العرب فيسألها: "ماذا سميتموه" قالوا: (حرب) قال: "بل هو (حسن)[٢٦].

وتضع بعد نحو عام فيدخل فيسأل: "ماذا سميتموه؟"، قالوا: (حرب) قال: "بل هو (حسين)، "وتصغير الفظ تكبير للحسن من معناه. ففي الحسن والحسين قوله صلى الله عليه وسلم: "هما ريحانتاي من الدنيا".

(ى) وفي العام الثالث وضعت وسموه (حرب)، قال: "بل هو (محسن).

فلئن كان علي يعيش في الحرب ببطولاته، إن رسول الله ينشر الحسن في كل حالاته.

(ك) ومن اسم الله واسم رسوله كثرت في أمته أسماء المحمدين والمحمودين والمصطفين وعباد الله والرحمن والرحيم وما في معناها.

---

(٢٦) قال عنه ﷺ: "ابني هذا سيد، وإن الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين". وهذه إحدى نبوءاته ﷺ.

(ل) ولم نعد نقرأ اسم "العاصي" أو شيطان أو الحكم (فلا حكم إلا الله سبحانه وتعالى) أو خباب أو شهاب. ولا المضطجع فقد سماه رسول الله المنبعث. وشعب الضلالة شعب الهداية.. وبنو الرثية سماهم بني الرشدة..

(م) ولا بأس على من يصر على استبقاء اسمه وإن أصاب البأس نسله: دخل على رسول الله حزن بن وهب وهو من أشراف الجاهلية وسيكون ممن بايعوا تحت الشجرة.. فسأله عن اسمه فقال حزن (ومعنى الحزن الصعب)، قال النبي: (بل اسمك سهل)، قال الرجل:لا أغير اسمي. وسنسمع حفيده سعيد بن المسيب بن حزن يقول: "فإنا لنعرف تلك الحزونة فينا"(٢٧).

(ن) وإذا كان الاسم قرين صاحبه، فالجلساء والأحباء أقرب قرناء، ورسول الله يقول: "مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك (يعطيك)، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة".

* * *

ويضع قاعدة عامة للصحبة والمحبة ليتصاحب الصلحاء فيقول: "المرء مع من أحب يوم القيامة".

قال أنس بن مالك عن جميع الصحابة "ما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد مما فرحنا بهذا القول"، فلقد كانوا رضي الله عنهم، وما يزال المسلمون أجمعون، يحبون أن يكونوا مع رسول الله في كل يوم، وبخاصة في ذلك اليوم.

---

(٢٧) هو علامة التابعين.

رفض أن يزوج بنته للوليد بن عبد الملك وهو ولي عهد لعبد الملك بن مروان، وزوجها طالب علم فقير. وطولب بالبيعة لولدي عبد الملك بن مروان اللذين سيعينان خليفتين فرفض فطافوا به في الأسواق وعذبوه ولم يجبهم إلى طلبهم. وأمر خادمه إذ كف بصره، أن ينحي عنه قارئا في المسجد حسن الصوت بالقرآن وهو يصلي. قال الخادم: "ليس المسجد لنا"، ولم يقل له إنه أمير المدينة عمر بن عبد العزيز حتى لا يصمم على تنحيته.

قيل فيه سعيد بن المسيب الجرئ إذ كان لا يتردد عن إعلان رأيه في الفتوى.

٦- الرحمة:

والرحمة صفته وخصيصة شريعته. ذكرها القرآن تسعا وسبعين مرة، وأطلقها على الرسول والرسالة حين قال تعالى له: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} الأنبياء ١٠٧.

وقال عنه في سورة التوبة {عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم}.

والقرآن هدى وبشرى ورحمة يقول الله تبارك وتعالى: {ونزلنا عليك الكتب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين} النحل ٨٩ بل قال سبحانه وتعالى عن نفسه {كتب ربكم على نفسه الرحمة} الأنعام ٥٤.

ومن الرحمة بالأمة كان التقليل في التكاليف لتعرف تمام المعرفة، وكان التيسير فيها ليقبل على أدائها المكلفون.

يقول عامل ثقيف، وهي من أواخر القبائل إسلاما وأشدها غلظة على الرسول قبل إسلامها وأقدمها إيذاء له ولزيد منذ دعاها للإسلام:

كان آخر ما وصاني به حين بعثني إلى ثقيف "تجوز في الصلاة وأقدر الناس بأضعفهم، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة".

وقال لعلي حين وجهه إلى اليمن: "صل بهم كصلاة أضعفهم"، "وكن بالمسلمين رحيما".

ولما شكا إليه شاك معاذ بن جبل إذ أطال الصلاة قال له "أفتان أنت يا معاذ خفف على الناس...".

وحدث مالك الخزاعي: غزوت مع رسول الله فما صليت خلف إمام قط أخف صلاة في المكتوبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان عليه الصلاة والسلام يقول: "الضعيف أمير الركب".

وليس أفصح في الدلالة على رحمته بأمته من أن يعطي الأمومة والطفولة حقهما في رحمة الله وهو بين يديه في الصلاة فهو يقول: "إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي بما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه".

أو رحمته بمن تسلط عليه غيره، روى أبو مسعود البدري: كنت أضرب غلاما بالسوط فسمعت صوتا من خلفي "اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام". فنظرت فإذا هو رسول الله فقلت: هو حر لوجه الله تعالى. قال: "أما لو لم تفعل للفحت وجهك النار".

وقرأ رجل سورة الإخلاص {قل هو الله أحد...}.

وذهب إلى رسول الله يقول إنها قليلة قال صلى الله عليه وسلم "والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن".

ودخل المسجد مرة فإذا بين ساريتين حبل ممدود. قال: "ما هذا"، قالوا: حبل لزينب فإذا فترت تعلقت به قال: "لا حلوه. ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد".

لكنه إذ يصلي وحده يفوق في نوافله المطيلين.

وجاء ثلاثة إلى بيوت زوجاته يسألون عن عبادته وكأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من رسول الله وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا. وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدا. فجاء إليهم صلى الله عليه وسلم وقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني".

لقد كان يشفق على أمته لتبقى وتقوى وتعمل، فيقول: "خذوا من العمل ما تطيقون"، ويقول: "إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى".

وصلى عليه السلام بالناس فجعل بعضهم يقولون أرأت كذا: فقال: "يا أيها الناس إن دين الله يسر في يسر".

وجاءه رجل من باهلة يقول: يا رسول الله أو ما تعرفني؟

قال: "من أنت"؟

قال: أنا الباهلي الذي جاءك عام أول.

قال: "وما غيرك فقد كنت حسن الهيئة"؟ قال الرجل: ما أكلت طعاما منذ فارقتك إلا بليل.

قال صلى الله عليه وسلم: "لم عذبت نفسك. صم رمضان ومن كل شهر يوما" قال زدني، قال: "صم كل شهر يومين" قال زدني، قال: صم كل شهر ثلاثة أيام".

وقال له رجل: إن أختي نذرت أن تحج ماشية، فأجابه: "مرها أن تركب فإن الله لا يصنع بعناء أختك شيئا".

obeikandl.com

٧- بر الوالدين وذوي الأرحام:

اهتم رسول الله بالوالدين وبرهما شرحا منه لقوله تعالى {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا}، فالله قد أتبع عبادته ببر الوالدين.

ولما سئل رسول الله عن أفضل الأعمال قال: "الصلاة لوقتها وبر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله"، وسأله رجل أن يجاهد، فسأله: "ألك أبوان"، قال نعم، قال: "ففيهما فجاهد".

ويقيم سياجا من بعيد ليحافظ عليهما فيقول: "إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه"، قالوا: كيف يلعن الرجل والديه يا رسول الله! قال: "يسب الرجل أبا الرجل، فيسب الرجل أباه وسب أمه فيسب الرجل أمه".

ويجيب من سأله عن أحق الناس بصحبته "أمك"، فيسأله ثم من؟ فيقول: "أمك".. فيسأله للمرة الرابعة فيقول: "ثم أبوك".

ويقول: "يد المعطي العليا، أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك، ولا تجني نفس على أخرى"، فهو يبدأ بالنساء والأم في صدارتهن. ولا ينسى ذوي الأرحام.

فيقول: "الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان".

ولما قدمت أم مشركة على بنتها وأنبأت بمقدمها رسول الله قال لها: "صلي أمك".

وقبل الحسن بن علي والأقرع بن حابس جالس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت أحدا منهم.

قال صلى الله عليه وسلم:"من لا يرحم لا يرحم".

وسجد سجدة فأطالها حتى حسب المصلون أن حادثا حدث أو أن وحيا يوحى، فلما سألوه قال "كل هذا لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله".

وسيطبق الدرس عمر فيعزل واليا من ولاته رآه يعجب من تقبيل عمر لابن له وقال وهو يعزله: "أنت والله بالناس أقل رحمة".

* * *

(أ) والرحمة شاملة:

وسمع وهو يصلي أعرابيا يقول: اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا. فلما سلم قال للأعرابي: "لقد حجرت واسعا" وأي حجر!.

والله تعالى يقول: {ورحمتي وسعت كل شئ} ١٥٦ الأعراف.

وقال صلى الله عليه وسلم لمن قدر على عدوه: "ملكت فأسجح" وقال للناس جميعا ليرحموا ويرحموا "اتقوا النار ولو بشق تمرة ومن لم يجد فبكلمة طيبة" والإيثار مكرمة وهو أكرم وأرحم مع الخصاصة:

أهديت في الليل هدية إلى عبادة بن الصامت ومعه اثنا عشر من أهل بيته، فقال اذهبوا بها إلى أهل بيت أحوج إليها منا هم أهل فلان. فذهبوا بها فأرسلوها إلى أحوج منهم، فصاروا يرسلونها إلى غيرهم حتى رجعت الهدية إلى عبادة قبل الصبح، كأنما شهدت المدينة كلها على أنه أحوج الجميع. وشهد الجميع للمجتمع أنه المجتمع الأمثل.

والرحمة مطلقة تتجلى في شأن القريب والبعيد والصديق والعدو والأعرابي المجفو أو الرجل أو المرأة بل المسلم والكافر.

أسر عمه العباس في بدر فكان يئن من قيوده، ثم لم يعد يسمع أنينه فقال ما لي لا أسمع أنين العباس؟ فلما أعلموه أنهم خففوا قيوده، أمر بأن يصنعوا ذلك بجميع الأسرى.

يقول: "لو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل ما عند الله من العذاب لم يأمن النار". وينادي الخلق جميعا ليكونوا رحماء بقوله: "الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".

وتروي أم المؤمنين عائشة: استأذن رجل على النبي فلما رآه قال: "بئس أخو العشيرة"، فلما جلس إليه تطلق في وجهه وانبسط إليه فلما خرج قالت: "يا رسول الله قلت كذا وكذا فلما جلست إليه تطلقت في وجهه وانبسطت إليه؟" قال: "يا عائشة متى رأيتن فحاشا؟ إن شر الناس عند الله منزلة من تركه الناس اتقاء شره".

وجاءت سرية عليها علي، فباع وصيفة من السبي واشترى جمالا أكلوها، وكان للوصيفة أم في السبي فلما علم النبي قال لعلي: "أفرقت بينها وبين أمها يا علي"؟ ولم يزل يردد عليه المقال حتى قال علي: "أنا أرجع وأستردها بما عز وهان قبل أن يمس رأسي ماء".

ومر عليه الصلاة والسلام بأم ضميرة وهي تبكي فدار بينهما حوار تنساب الإنسانية فيه حتى تعطر الوجود. قال صلى الله عليه وسلم:.. أجائعة أنت؟ أعارية أنت؟" قالت: "فرق بيني وبين ابني" فقال صلى الله عليه وسلم: "لا يفرق بين الوالدة وولدها"، ثم أرسل إلى من عنده ضميرة فابتاعه منه ببعير وكتب لزوجها كتابا ".. لأبي ضميرة وأهله: إن رسول الله أعتقهم، وإنهم أهل بيت من العرب إن أحبوا أقاموا عند رسول الله، وإن أحبوا رجعوا إلى قومهم فلا يعرض لهم إلا بحق، ومن لقيهم من المسلمين فليوص بهم خيرا".

وهو العطوف اللطيف بابن السبيل: جلس يأكل وجاء مسافر فقال له: "هلم"، قال الرجل: إني صائم، فقال عليه الصلاة والسلام: "ألم تعلم ما وضع الله عن المسافر؟ الصوم ونصف الصلاة".

ولئن كانت الرحمة أمرا مستقرا في الأنفس، إن مظهرها الذي تتجلى فيه هو: التواصل. ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم: "كل معروف صدقة" ويقول للزبير: "إن باب الرزق مفتوح بباب العرش فمن قلل قلل له ومن كثر كثر له".

وكان أجود ما يكون في رمضان: حيث الصوم مشاركة لكل محروم.

ومن السبعة الذين قال إن الله يظلهم يوم لا ظل إلا ظله ".. رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله" وهو بهذا يكرم المعطي والآخذ ويعلم الناس حسن العطاء.

وإنما هو تطبيق لقوله تعالى: {إن تبدوا الصدقات فنعما هي، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم}.

والكلمة الطيبة هبة، وانتهار السائل أسبوبة.

(ب) مع الحيوان:

ويذكر عليه الصلاة والسلام الأمثال لصحبه، "بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ووجد بئرا فنزل فيها وشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث.. فنزل البئر وملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له".

قالوا يا رسول الله إن لنا في البهائم لأجرا؟ قال: "في كل ذات كبد حرى أجر" وهو القائل: "دخلت النار امرأة في هرة حبستها ولم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض".

والمسلمون يشهدونه يصغي الإناء للهرة ولا يرفعه، حتى تروى، ويشهدونه على رأس عشرة آلاف لفتح مكة إذ رأى كلبة تسهر على جرائها فألزمها جعيل بن سراقة، وكان يؤثره، حتى يمر الجيش فلا ينالها منه أذى.

ومر ببعير لصق ظهره ببطنه من الجوع فقال: "اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة".

وكان ينهى عن ضرب الحيوان في وجهه أو وسمه فيه، ويعلم قومه: "إن الله يحب الإحسان في كل شئ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا بحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته".

ورأى رجلا أضجع شاة وهو يحد شفرته فقال:

"أتريد أن تميتها موتات هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها"؟

كان مع أصحابه في سفر فرأوا طيرا معه فرخان فأخذوهما فطار الطير يرفرف فسأل صلى الله عليه وسلم "من فجع هذه بولدها؟ ردوا أولادها إليها".

وروى أعرابي للنبي أنه جاء بفراخ طائر، وهو لا يدرك أثر ما يقول في قلب الرسول (... فأخذتهن فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي فكشفت لها عنهن فلففتها بكسائي، فهن أولاء معي).

فقال له صلى الله عليه وسلم "فضعهن".

وأبت أمهن إلا لزومهن قال صلى الله عليه وسلم: "تعجبون برحمة أم الأفراخ بفراخها؟" قالوا: نعم قال: "والذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها ارجع بهن فضعهن من حيث أخذتهن وأمهن معهن".

obeikandl.com

٨- والموعظة الحسنة رحمة بالأمة:

ورسول الله يؤثر أسلوب التعميم الذي يستعمله المشرع وإن عني امرءا بذاته لتفيد من الحكم جماعة المسلمين أو ليستر المذنب.

استعمل عاملا ذكرت الكتب اسمه على الصدقة فجمعها وعاد بها يقول: هذا للمسلمين وهذا لي فقام النبي فخطب فقال: "ما بال العامل أبعثه فيقول هذا لكم وهذا أهدي إلي أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده، لا ينال أحد منها شيئا إلا جاء يوم القيامة والذي يحمله على عنقه، بعير له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تبعر، ثم رفع يديه.. ثم قال: اللهم هل بلغت" قالها مرتين... دون أن يذكر اسم الرجل.

والمسلمون إخوة، تحفظ غيبتهم وتكرم جيرتهم وتجب ضيافتهم. يقول: "من كان يؤمن باله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه".

ويقول صلى الله عليه وسلم "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

ويضرب أبلغ الأمثال لما يجمعه الإنسان من الدنيا، ليدرك الجميع آخر أمرها فيقول: "ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم اصبعه في اليم فلينظر بم يرجع". وللحسنات والسيئات فيسأل "أتدرون ما المفلس؟" قالوا من لا درهم له ولا متاع.

فقال: "المفلس من يأتي بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار".

ولنزاهة التعامل وجدواها في عمارة الدنيا فيقول: "اشترى رجل ممن كان قبلكم عقارا من رجل فوجد الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب، فقال الذي اشترى العقار: خذ هذه عني إنا اشتريت العقار ولم أبتع منك الذهب فقال بائع الأرض إنما بعتك الأرض وما فيها. فتحاكما إلى رجل فقال الذي تحاكما إليه: ألك ولد؟ فقال أحدهما لي غلام وقال الآخر لي جارية فقال أنكحوا الغلام الجارية وتصدقوا".

لكنه إذا خاف زيغ الناس ينذر ويحذر.. مات ولده إبراهيم قبل أن يتم رضاعه، وكان حزنه شديدا، وفي ساعة الدفن كسفت الشمس بعد أن بارح رسول الله المقبرة، فلهج المسلمون بأن الشمس كسفت حزنا على وفاة الوليد. فخرج مسرعا فخطبهم: "أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان لله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة".

٩- إنما الأعمال بالنيات:

هاجر رجل للزواج من إحدى المهاجرات فجلس عليه السلام على المنبر وقال: "أيها الناس. إنما الأعمال بالنيات (قالها ثلاثا)، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر له" فالنية علامة الطريق إلى الله، وكم من عمل صغير تعظمه النية أو كبير تصغره. ورسول الله يعالج الأنفس حتى لا تستسلم لشهواتها أو تقاربها إذ تستهين بالشبهات. فيقول: "الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات لا يدري كثير من الناس أمن الحلال هي أم هي من الحرام، فمن تركها استبراء لدينه أو لعرضه فقد سلم. ومن واقع منها شيئا يوشك أن يواقع الحرام. كما أن من يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا إن لكل ملك حمى وحمى الله محارمه".

وإدراك الخير فطرة، والورع جنة، بل إن الإمام أحمد بن حنبل يرى أصول الإسلام على الحديثين السابقين، وحديث من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد.

يسأل نبي الله رجل: ما الذي يقربني من الجنة فيجيب: "إن كنت قد أوجزت في المسألة فقد أعظمت وطولت"، (وذكر الفروض)، ثم قال: "وما أحببت أن يفعله الناس بك فافعله، وما كرهت أن يفعله الناس بك فاجتنبه".

ولا يدع بابا للتوبة إلا فرج على الناس به. جاءه رجل من كندة يقول: أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها لم يترك منها شيئا.. فهل لذلك من توبة؟ قال صلى الله عليه وسلم "هل أسلمت؟" قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك رسوله. قال صلى الله عليه وسلم "نعم تفعل الخيرات وتترك السيئات فيجعل الله لك كلهن حسنات".

قال الرجل: الله أكبر. فما زال يكبر حتى توارى.

١٠- الحياء من الإيمان:

(أ) يقول صلى الله عليه وسلم: "الحياء لا يأتي إلا بخير"، ويقول: "إذا أراد الله لعبد هلاكا نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء لم تره إلا فظا غليظا نزع منه ربقة الإيمان من عنقه فإذا نزع منه ربقة الإيمان من عنقه لم تلقه إلا شيطانا لعينا ملعونا".

ولا يفتأ يوسع دائرة الإيمان ويأمر صحبه بالحياء – فهذا خلق المسلم الحق – فيقول: "استحيوا من الله حق الحياء"، فيجيبون إننا نستحي يا نبي الله والحمد لله، فيقول: "ليس كذلك، ولكن من استحيا من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن فعل ذلك فقد استحى من الله حق الحياء".

وفي مجلس آخر يقول: "إن مما أدرك من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت" أي لا تصنع إلا ما لا تستحي منه. فبهذا وحده تصلح الجماعة. ويقول: "الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان"، وحسبنا اختصاص الحياء بالتنويه لتندرج تحته المكرمات وتساقط السيئات. فذلك التزام للجادة وعمل الشريعة.

(ب) والاستحياء يوجب التواصل بإفشاء السلام، فلا يجمل بمسلم الانطواء أو الازورار، وخير الرجلين من يبدأ صاحبه بالسلام والإكرام. يسأله أبو الأحوص: الرجل أمر به فلا يقريني ولا يضيفني، فيمر بي أفأضيفه؟ ويجيب صلى الله عليه وسلم "لا. بل أقره"، وهو يأمر بالأمانة "أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك" وينهى عن المجافاة: "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما هو الذي يبدأ بالسلام" ويرتب إلقاء السلام حيث قال: "يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير".

وقال "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته" قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: "يومه وليلته". وكان يسأل صحبه بل يسأل الوفود: "كيف رأيتم كرامة إخوانكم لكم؟"، ومنهم من حفظت إجابته: (كانوا خير إخوان ألانوا فراشنا، وأطابوا مطعمنا، وباتوا وأصبحوا يعلموننا كلام ربنا، وسنة نبينا).

وهو مسماح تقفو أمته آثار سماحته: تقدم عليه جماعة من الأعراب يظهر عليهم سوء الحال، ورثى لذلك أثر في وجهه فاستحيا الحاضرون وتسارعوا إلى مرضاته، فجاء رجل بصرة من ورق (فضة) ثم تتابعوا في المعونة، حتى عرف السرور في وجهه.

وهو يقول "من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له من الأجر مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شئ ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شئ".

والمسلم يثاب بقدر ما يدعو بالخير للغير. فرسول الله يقول: "يستجاب للمرء بظهر الغيب لأخيه، فما دعا لأخيه بدعوة إلا قال الملك: ولك بمثل".

وينبه على البدار إلى الخير أمرا بالمعروف واستزادة للسعادة، فيقول للمسلمين: "أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم، تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا. ولأن تمشي مع أخ في حاجة، أحب من أن تعتكف في هذا المسجد، (مسجد المدينة) شهرا. ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا. ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يقضيها، ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام".

وإذا لم يكن المجتمع كذلك كان الناس كالإبل المائة لا تجد فيها راحلة.

يسأله معاذ بن جبل: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار فيقول: "قد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت..."، ثم يقول: "ألا أدلك على أبواب الخير.الصوم جنة. والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل"، ثم تلا: {تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} ثم قال.. "ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجاد"، ثم قال: "ألا أخبرك بملاك الأمر كله؟"... فأخذ بلسانه ثم قال "كف عليك هذا".

قال معاذ: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: "ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟".

* * *

(ج) سد الذرائع: وهو صلى الله عليه وسلم يعلم الناس التصاون فمن حديثه: "أربع خصال مفسدة للقلوب: مجاراة الأحمق إن جاريته كنت مثله وإن سكت سلمت، وكثرة الذنوب واله تعالى يقول "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون"، والخلوة بالنساء والاستماع منهن والعمل برأيهن، ومجالسة الموتى". قالوا ومن الموتى؟ قال: "كل غني قد أبطره غناه". فالذي يبطره الغنى يفرغ

نعمة الله من مضمونها ويجعلها مصدر شر بالأشر، لا سبب شكر بالتواضع. لقد كان عبد الرحمن بن عوف يجلس بين عبيده فلا يعرف ببينهم.

ولا يفتأ صلى الله عليه وسلم يسد الذرائع ليستعمل الناس أنعم الله في وجوهها فيقول: "العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليدان زناهما البطش، والرجل زناها الخطى. والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج ويكذبه".

يقول لصحبه: "إياكم والجلوس في الطرقات" ويقولون ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها. فيقول: "أما إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه" قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟

قال: "غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف".

وما أرحمه وأحلمه وأبلغه إلى الغاية حين يهذب من ألم بذنب. روى خوات بن جبير: خرجت ذات يوم فإذا بنسوة يتحدثن وفي أيديهن ليف يفتلنه فأعجبنني، فجلست معهن، فخرج رسول الله من قبلة فلما رأيته صلى الله عليه وسلم هبته فاختلطت فقلت: يا رسول الله لي جمل شرود فأنا أبتغي له قيدا من أولئك النسوة. فمضى رسول الله واتبعته.. وتوضأ ثم أقبل.. فقال: "يا أبا عبد الله ماذا فعل ذلك الجمل؟"، ثم ارتحلنا فجعل لا يلحقني في المسير إلا قال لي "السلام عليك يا أبا عبد الله ماذا فعل جملك الشارد؟"، فلما رأيت ذلك من رسول الله تغيبت عن المدينة، واجتنبت المسجد والجلوس إلى رسول الله حياء منه، فلما طال ذلك علي أتيت المسجد فقمت أصلي، فخرج رسول الله من بعض بيوته فجاء فصلى ركعتين، وطولت أنا صلاتي رجاء أن ينصرف رسول الله ويتركني، فقال لي: "يا أبا عبد الله طول ما شئت أن تطول: فلست بمنصرف حتى تنصرف".

فقلت في نفسي والله لأعتذرن إلى رسول الله ولأبرئن صدره. فلما انصرفت قال: "السلام عليك يا أبا عبد الله ماذا فعل بعيرك الشارد؟".

فقلت: والذي بعثك بالحق لقد عقله الإسلام يا رسول الله. فقال صلى الله عليه وسلم "يرحمك الله يا أبا عبد الله"، وكرر ذلك ثلاث مرات.

* * *

والعدل والإحسان في الإسلام قرينان. وما أعظمه إذ يعلمهما أصحابه:

اشتروا له جزورا بوسق (ستين صاعا) من تمر من أعرابي، فلما ذهب يستوفى الثمن لم يجدوا في دار رسول الله تمرا. قال الأعرابي: واغدراه! قال الناس: تقول هذا لرسول الله! فحماه منهم، وعلمهم بإحدى جوامع الكلم: "دعوه فإن لصاحب الحق مقالا".. واقترض رسول الله تمرا وسدد الثمن.

وهو يعلم العدل لمن سيكون في الغد مضرب المثل للدنيا في العدل... جاءه رجل من البادية يلتمس العون فافترص الفرصة حبر يهودي فأقرض النبي ثمانين دينارا اشترى بها تمرا أعطاه للبدوي، وقبل حلول الأجل بيومين مشى صلى الله عليه وسلم في جنازة، فخاشنه اليهودي في الطلب وقال إنكم قوم مطل.قال عمر: تقول ذلك لرسول الله والله لولا ما أحاذر لضربت رأسك بسيفي. قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبتسم: "يا عمر أنا وهو إلى غير هذا منك أحوج. تأمره بحسن الاقتضاء وتأمرني بحسن القضاء. اذهب فأعطه حقهوزده عشرين صاعا مكان ما روعته".

قال اليهودي فيما بعد: أعطاني فقضاني. وزادني فأسلمت، وإنا أسلم بالإحسان. ورسول الله يقول: "خذ حقك في عفاف وافيا أو غير واف" وهو القائل: "خياركم أحسنكم قضاء" والقائل "ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب".

سأله سائل ولم يكن عنده ما يعطيه فنادى صلى الله عليه وسلم "من عنده سلف؟" قال أنصاري: عند يا رسول الله قال: "أعطه أربعة أوسق" ثم لبث الأنصاري ما شاء الله وجاء يخبر رسول الله أن ليس عنده شئ. فقال صلى الله عليه وسلم "سيكون إن شاء الله" حتى أتاه ثلاثا، وقال في الثالثة: أكثرت يا رسول الله؟ وضحك رسول الله وسأل: "من عنده سلف"، قال رجل: عندي. قال: "أعطه ثمانية أوسق" قال الأنصاري مالي إلا أربعة. قال نبي الرحمة: "أربعة أيضا"، فهو هنا يقضي دينا فيضاعف قدره، وإن كان في الحالين مقترضا.

١١- (أ) القناعة والزهادة:

وهذا حكيم بن حزام – ابن أخي خديجة والمعوان في شدائد الشعب – سيعطيه مائة من الإبل بين المؤلفة قلوبهم فيطلب مائة ثانية فأعطاه فطلب مائة ثالثة فأعطاه. لكنه قال له عندئذ: "يا حكيم إن هذا المال حلوة خضرة، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفسي لم يبارك فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى".

وعندما جاء أبو عبيدة بمال كثير من البحرين أقبل الناس على رسول الله فقال لهم: "أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة وأنه جاء "بشئ" فأبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخاف عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على الذين من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتلهيكم كما ألهتهم".

إنه يسمي المال الكثير "شيئا" ويخاف أن يصاب بحبه المؤمنون، ولذلك يقول "تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم، وإن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله استخلفكم فيها فناظر ماذا تعلمون".

وأول من يخاف عليهم الدنيا أهله:

ذهب يزور فاطمة الزهراء ذات يوم لكنه لم يدخل، فأرسلت عليا يسأل. قال صلى الله عليه وسلم: "رأيت على بابها سترا موشيا"، فلما علمت قالت ليأمرني فيه بما يشاء. قال: "تبعث به إلى فلانة.. أهل بيت بهم حاجة". والصوفية يضعون عليا في قمة أئمتهم من زهده الذي مارسه في هذه المدرسة.

جاءته عليه الصلاة والسلام يوما حلة من حرير هدية، فبعث بها إلى جعفر بن أبي طالب إذ عاد من الحبشة ولبس جعفر الحلة فقال له عليه الصلاة والسلام: "لم أعطكها لتلبسها"، قال: فما أصنع بها؟ قال: "ابعث بها إلى أخيك النجاشي".

وهو عليه السلام يحب السعة للأمة فيقول: "كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك اثنتان سرف أو مخيلة" فالخيلاء منقصة والسرف مفسدة، وللمال مصارف مؤدية إلى الجنة وأخرى مؤدية إلى النار. ومنها أن يجوع فقير في جوار صاحب مال.

قال: "أيما أهل عرصة أصبح منهم امرؤ جائعا، فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله"، وعلم الناس التكافل بقوله "إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم في المدينة، حملوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموا بينهم في إناء واحد. فهم مني وأنا منهم".

(ب) التواضع والاحتفاء بالعشراء والصبر على الجاهلين:

ورسول الله بشر، أصحابه عشراؤه. خرج عليهم ذات يوم متوكئا على عصا فقاموا. فقال: "لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا". كان يركب الحمار ويردف خلفه، ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حيث انتهى به المجلس، وينهاهم عن إطرائه،ويقول: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله". وحج على رحل رث وعليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم وقال: "اللهم اجعله حجا لا رياء فيه ولا سمعة".

ولما فتحت عليه مكة دخلها وقد طأطأ رأسه حتى كاد يمس قادمة رحله تواضعا لربه.

وهو العشير المكافئ، روى أبو هريرة دخلت السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشترى سراويل وقال للوازن: "زن وأرجح"، فوثب الرجل على يد الرسول يقبلها فجذب يده وقال: "هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك إنما أنا رجل منكم"، ثم أخذ السراويل، فذهبت لأحمله فقال: "صاحب الشئ أحق بشيئه أن يحمله".

وكانوا على سفر فأمر صحبه بإصلاح شاة ليطعموا.. قال رجل منهم علي ذبحها وقال آخر علي سلخها فقال صلى الله عليه وسلم "وعلي جمع الحطب" فاختار الأصعب!

قالوا: يا رسول الله نكفيك العمل، وأجاب "قد علمت أنكم تكفونني، ولكن أكره أن أتميز عليكم، وإن الله تعالى يكره عبده أن يراه متميزا بين أصحابه".

وهو النبي لا كذب غوث للمستغيثين وإن كانوا أعداء.. لقد استغاثته قريش ليتوسط لدى أهل نجد ليرسلوا إليها القمح والشعير، ولم يك بعيدا من ذهنه وذهنها حصارها له ولأهله في شعب أبي طالب، أو هجومهم على مدينته ومع ذلك توسط ليطعمهم من جوع.

ولو أخذهم بذنبهم لكان حسبه السكوت جزاء لهم من جنس عملهم، لكنه عفو، وأفضل العفو عفو عن العدو. وما كان أحلى ترغيبه في العفو.. يقول لصحبه: "ألا تحبون أن تكونوا كأبي ضمضم؟.. إن أبا ضمضم كان إذا أصبح قال: اللهم إني تصدقت بعرضي على من ظلمني..!".

والناس لآدم يستوون تمر جنازة يهودي فيقوم، قالوا: إنها جنازة يهودي قال: "أليست نفسا".

وقام ذات يوم يخدم بنفسه وفدا من الوفود فقال الصحابة: "نكفيك يا رسول الله فأجاب: "إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإني أحب أن أكافئهم".

وإذا استجفى الصحابة أعرابيا جلفا لم يجفه. ففي قسمة غنائم هوازن قال منافق: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فغضب حتى احمر وجهه، وقال للرجل: "ويحك من يعدل إذا لم أعدل؟!" قال عمر وخالد: "دعنا يا رسول الله نضرب عنق هذا المنافق"، قال نبي الرحمة: "لا لعله أن يكون يصلي"، قال خالد: "وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه"؟ قال عليه الصلاة والسلام: "إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم"..

وتزاحم الأعراب يومئذ يقولون اقسم علينا حتى ألجئوه إلى شجرة فعلق بها رداؤه فقال: "ردوا ردائي أيها الناس فوالله إن كان لي مثل شجر تهامة غنما لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كدودا" ثم قام إلى بعيره وأخذ وبرة من سنامه وقال: "أيها الناس والله ما لي من غنيمتكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم..".

وكان يعطي فيغني وبنته فاطمة تعاني شظف العيش ونساؤه سعيدات بالتقشف فأهل بيته أول الآخذين إخذه. وهو القائل "ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فثلث لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لنفسه".

وهو عليه الصلاة والسلام أصبر الناس في الشدائد يشيد بالصبر والشكر في كل موقع وفي بلاغة تجريهما على الألسنة.

يقول: "عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرا له".

١٢- الإيمان قول وعمل قوامه العمل النافع وملاكه الورع:

جاءه عليه الصلاة والسلام رجل يقول إني نذرت أن أعتزل وأتعبد، فنهاه بقوله ثلاث مرات: "لا تفعل"، وأضاف "لصبر أحدكم ساعة من نهار في بعض مواطن الإسلام خير من عبادة أربعين عاما"، فليس في الإسلام رهبنة، بل فيه عمل. وهو عليه السلام يقول: "المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم".

فالمسلم إيجابي يفعل في مجتمعه وينفعل به. ومن ثواب العمل فضل أمير المؤمنين عمر في العطاء "أم سليط" على زوجته أم كلثوم (حفيدة النبي وبنت علي) لأنها – أم سليط – كما قال "كانت تزفر لنا القرب يوم أحد".

وللقدوة وابتغاء المثوبة وحسن الصحبة تناول رسول الله ركوب راحلته مع زميلين فتيين، علي وأبي لبابة، إذ حاولا أن يركب في نوبتيهما فقال: "ما أنتما بأقوى على المشي مني وما أنا بأغنى عن الأجر منكما".

ورسول الله يقول: "وقالوا نحن نحسن الظن بالله وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل" وإنما أراد العمل للدنيا والآخرة مع التقوى.

وهو يعطي اليد العاملة أمانا من النار يوم أقبل من تبوك فلقيه سعد الأنصاري، فنظر إلى يد سعد وقال "ما الذي أكتب يديك يا سعد؟" قال: يا رسول الله أضرب بالمر والمسحاة فأنفقه على عيالي، فقبل رسول الله يده. وقال "هذه يد لا تمسها النار".

١٣- حسن الجوار:

ومن التواصي بالمرحمة حسن الخلق وحسن الجوار. وفي ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "خير ما أعطي الإنسان حسن خلق، وشر ما أعطي الإنسان سوء خلق في صورة حسنة" وليس أنجح في تعليم ذلك من عمله، وبخاصة حيث لا ينتظر عمله، وهو إزالة المنكر بغير اليد واللسان والقلب ولكن بحسن الخلق، وهو كالصحة، تعدي كما يعدي المرض. وقد يرتفع بمرتكب الذنب درجة بالحياء، ودرجة بالتوبة، فيندفع المنكر وينتفع مرتكبه، وينتفي الضرر بمشاركة الجماعة. وفي كل ذلك خير.

شكا رجل جاره إليه صلى الله عليه وسلم، فأمره أن يطرح متاعه في الطريق ففعل، فجعل كل من يعلم إيذاء صاحب المتاع يسب المؤذي. فجاء إلى صاحبه يقول: "رد متاعك فوالله لا أوذيك أبدا".

كان صلى الله عليه وسلم يقول: "خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره"، و "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه".

ويقول ليكرم الأقرب: "إذا اجتمع داعيان فأجب أقربهما بابا، فإن أقربهما بابا أقربهما جوارا، وإن سبق أحدهما فأجب الذي سبق".

ومن أناقة الصحبة عدم الإسرار لحاضر دون آخر. يقول: "إذا كنت ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث" والاطلاع على أسرار الآخرين لؤم وحطة ينهى عنهما بقوله: "من اطلع على كتاب أخيه دون إذنه فقد اطلع في النار".

والمجالس أمانات ينهى عن خيانتها بقوله: "حديثكم بينكم أمانة، ولا يحل لمؤمن أن يرفع على مؤمن". وإذا كان أهل الذمة جيرانا فلهم كرامة الجار. يقول ابن عمر لتابعه: "إذا ذبحت فابدأ بجارنا اليهودي".

١٤- أهل الذمة:

ولأهل الذمة مكانهم المصون في الجماعة، يحاسب في الدنيا من آذاهم، ويبقى رسول الله خصيمه يوم القيامة. يقول: "من آذى ذميا فأنا خصيمه يوم القيامة" و "من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس، فأنا خصيمه يوم القيامة" و "من قتل قتيلا من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة"، ويجعل دية المعاهد كدية المسلم ألف دينار.

وما كان أحسنه جدلا لأهل الكتاب: جاءه حبر من النصارى يقول: إنا نجد يا محمد أن الله يجعل السموات على اصبع والشجر على اصبع والماء على اصبع والثرى على اصبع، وسائر الخلائق على اصبع فيقول: أنا الملك.

قال ابن مسعود وكان حاضرا: وضحك النبي حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر.. ثم قرأ قوله تعالى {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون} الزمر ٦٧.

والله تعالى منزه عن التجسيد ورسوله يهدي الحبر بالجدال بما هو أحسن، أي بحسن الاستماع وصدق الجواب.

وكان أبو بكر وعمر يؤتيان الذمي الهرم من بيت مال المسلمين.

ومن أسلم من المشركين أو الذميين أو أصحاب دين ليسوا في دار المسلمين فهو مسلم، والإسلام يجب ما قبله، والمقيم بدار الإسلام مرجو الإسلام لما يعاين من مزايا الجماعة الإسلامية.

١٥- المنافقون:

والتسامح من أظهر وجوه الرحمة، وما أعظم ما ضربه الرسول من أمثال فيه حتى مع المنافقين، وقد نزلت سورة (المنافقون) ويفهم منها أنها جعلت أمرهم إليه، فأفسح لهم طريقهم للتوبة.

عن الأسود: كنا في حلقة عبد الله بن مسعود فجاء حذيفة حتى قام علينا فسلم ثم قال "لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم. قال الأسود: سبحان الله! إن الله يقول (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) فتبسم عبد الله بن مسعود ثم جلس في ناحية من المسجد. وجلس حذيفة فقام عبد الله فتفرق أصحابه... فقال حذيفة: عجبت من ضحكه وقد عرف ما قلت: لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم ثم تابوا فتاب الله عليهم.

جاء حرملة بن زيد الأنصاري إلى النبي يقول: "إن لي إخوانا منافقين كنت رأسا فيهم، أفلا أدلك عليهم؟".

قال صلى الله عليه وسلم: "من جاءنا كما جئتنا استغفرنا له كما استغفرنا لك. ومن أصر على ذلك فالله أولى به. ولا تخرق على أحد سترا".

لكنه يحذر من خصالهم بقوله: "أربع من كن فيه كان منافقا خالصا. ومن كان فيه خصلة منها كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها. إذا أوتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"، ولم تؤخر خصال المنافقين تقدم الإسلام وهم بين أظهر المسلمين.

ذهب عليه الصلاة والسلام في أوائل مقدمه إلى المدينة يعود سعد بن عبادة، فمر بمجلس فيه يهود، بينهم عبد الله بن أبي بن سلول "وسلول أمه"، وكان ما يزال على شركه، فوقف النبي عليهم وهو على حماره فقال ابن أبي: لا تغبروا علينا. فقرأ عليه النبي القرآن وقال ابن أبي: أيها المرء لا أحسن مما تقول، إن كان حقا، فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه.

واستب المسلون واليهود والمشركون. ولم يزل رسول الله يخفضهم حتى سكنوا. فقصد إلى سعد بن عبادة فعاده، وقال له: "ألم تسمع ما قال أبو حباب (ابن أبي)، قال كذا وكذا"، قال سعد: "يا رسول الله اعف عنه واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة. فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق به. فذلك فعل به ما رأيت".

وآتى صبر رسول الله عليه ثماره. فأسلم ابن أبي بعد انتصار بدر لكنه ظل كهفا يأوى إليه المنافقون، وصرحت سورة (المنافقون) بفعله وإن لم تذكر اسمه، وعاد لأشد منها بعد أيام حين روج لحديث الإفك، ونزل القرآن يكذبه في سورة النور. ومع ذلك تركه الرسول ليموت حتف أنفه. ولم يضر نفاقه إلا نفسه. وإنما يصاب المسلمون من تخاذلهم. وسنعرض لمواقفه فيما بعد في أكثر من مقام.

ولما مات صلى عليه رسول الله واستغفر ربه لخطاياه، ولكن القرآن نزل فنهى عن الصلاة على أحد من المنافقين مات أبدا[٢٨]. {ولا تصل على أحد منهم مات أبدا. ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله وماتوا وهم فاسقون} التوبة ٨٤.

{استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم} التوبة ٨٠.

---

(٢٨) قال عمر رضي الله عنه: لما مات ابن أبي دعي رسول الله ليصلي عليه فلما قام قلت يا رسول الله أتصلي عليه وقد قال كذا يوم كذا وكذا، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: "أخر عني يا عمر{" فلما أكثرت عليه قال: "إني خيرت فاخترت لو أعلم أني لو زدت على السبعين يغفر الله له لزدت عليها" وصلى رسول الله ثم انصرف فلم يمكث إلا قليلا حتى نزلت الآيتان من سورة التوبة {ولا تصل على أحد منهم مات أبدا، ولا تقم على قبر، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون}.

{استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم..}.

١٦- ساعة وساعة:

كان صلى الله عليه وسلم يقول "روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عميت" ويهش للدعابة ويكثر التبسم ويعتبر البشاشة صدقة يؤجر عليها البشوش. فيقول: "كل معروف صدقة ومن الصدقة أن تلقى أخاك بوجه طلق"، ويقول صلى الله عليه وسلم: "المؤمن مألف فلا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف".

ولذلك قال قائل أمام سفيان الثوري إمام الزهد والفقه والحديث: المزاح هجنة وأجابه سفيان بل سنة.

والمزحة الرقيقة أكرومة. وكان صلى الله عليه وسلم يكرم مخاطبه بالمزحة وما يقول إلا حقا. يقول لخادمه أنس "يا ذا الأذنين"، ويقول لرجل جاء يستحمله على بعير "إني حاملك على ولد الناقة"، قال الرجل ما أصنع بولد الناقة. قال صلى الله عليه وسلم: "وهل تلد الإبل إلا النوق".

ولما قدم في آخر المهاجرين إلى المدينة صهيب الرومي أحد السابقين للإسلام، جاء وهو أرمد العين فوجد في المجلس تمرا فأكل. قال صلى الله عليه وسلم: "أتأكل التمر وأنت أرمد؟".

وكانت في صهيب دعابة مع علو مقامه فأجاب: إني آكل بشق عيني الصحيحة. وضحك رسول الله حتى بدت نواجذه.

وذهب حنظلة بن الربيع يوما يبكي عند أبي بكر ويقول: نافق حنظلة. نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فيذكرنا بالجنة والنار رأي عين، فإذا رجعنا عافصنا (داعبنا) الأزواج والضيعة ونسينا كثيرا.. فانطلقا إلى رسول الله.. فكرر حنظلة قوله فقال عليه الصلاة والسلام: "لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي، لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم وعلى فرشكم، لكن يا حنظلة ساعة وساعة".

وخرج أبو بكر بتجارة إلى الشام ومعه نعيمان بن عمرو وسويبط بن حرملة وهما بدريان، من أهل بدر، وسويبط على زاد أبي بكر. فطلب نعيمان إلى حرملة أن يطعمه، فأبى حتى يأتي أبو بكر. فتوعده نعيمان، حتى إذا مروا بقوم عرض عليهم نعيمان شراء عبد له فقبلوا. فقال لهم إنه عبد له كلام، وسيدعي أنه حر، فإن كنتم ستقبلون كلامه فلا تفسدوه علي ولا تشتروه من الآن. قالوا: بل نشتريه، وباعه بثمن بخس جاءوه به. فقال لهم دونكم هو هذا. وأشار إليه، وصاح سويبط فوضعوا الحبل في عنقه واقتادوه.

وجاء أبو بكر فصح الأمر ولما عادوا حكى الواقعة للنبي صلى الله عليه وسلم فظل يضحك منها عاما حتى وفاته.

واشترى نعيمان طرفة وردت إلى المدينة وأهداها للنبي، وقاد البائع إلى النبي وقال له: أعط هذا ثمن ما جئت به إليك. قال صلى الله عليه وسلم: "ألم تهد ذلك لي؟"، قال نعيمان: لم يكن عندي ثمنها وأحببت أن تكون عندك يا رسول الله فضحك عليه السلام ودفع.

وجاء أعرابي في عام جدب وأناخ راحلته فقال بعض الصحابة لنعيمان: لقد اشتهينا اللحم. فلو نحرتها لأكلناها وغرم رسول الله ثمنها لأجلنا. وصنع نعيمان. وصاح الأعرابي وبحثوا عن نعيمان فوجدوه مختبئا، وصاح رجل منهم وهو يشير إلى مخبأ نعيمان: ما رأيته يا رسول الله. وأخرجه صلى الله عليه وسلم وسأله: "ما حملك على هذا؟" فأجاب: الذين دلوك علي يا رسول الله.

فجعل عليه السلام يمسح وجهه ويضحك.

وهو يأذن في اللهو الحلال: تزف عائشة امرأة من الأنصار إلى زوجها مشاركة في مباهجهم ويقول لها عليه السلام: "هل كان معكم لهو. فإن الأنصار يعجبهم اللهو" وتروي: "دخل علي أبو بكر وعندي جاريتان تضربان بالدف وتتغنيان بما تقاولت به الأنصار أيام بعاث. قال أبو بكر: أمزمور في بيت رسول الله؟ قال عليه الصلاة والسلام: "يا أبا بكر إنها أيام عيد وهذا عيدنا".

وجاء الأحباش يرقصون بحرابهم وتقول عائشة: فدعاني النبي فوضعت رأسي على منكبه أنظر إلى لعبهم.

وجاءته جارية فقالت: "يا رسول الله إني نذرت إن ردك الله صالحا أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى فقال: "إن كنت نذرت فاضربي وإلا فلا" فجعلت تضرب. ودخل أبو بكر ثم دخل عثمان ثم دخل علي وهي تضرب. ثم دخل عمر فأخفت الدف، فقال صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطان ليخاف منك يا عمر. إني كنت جالسا وهي تضرب. فدخل أبو بكر وهي تضرب ثم دخل... ثم... فلما دخلت أنت يا عمر ألقت الدف".

ولقد استقبلت المدينة رسول الله بالدف والألحان والنشيد. واستقبلته فتيات من الأنصار بأيديهن الدفوف يقلن: "نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار". وعلى ذلك مضى عصر رسول الله.

ورأى عامر بن سعد بعد موتا رسول الله ابن مسعود الأنصاري وقرظة ابن كعب وهما في عريش فيه جوار يتغنين فقال: أنتم أصحاب رسول الله يفعل هذا عندكم! قالا اجلس فإن شئت فاسمع معنا، وإن شئت فاذهب. فإنه رخص لنا في اللهو عند العرس.

والرسول يحث المسلمين على الأخذ بأسباب الجمال والصحة والقوة فيقول: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان"، فيقول رجل: يا رسول الله أحب أن يكون ثوبي حسنا ونعلي حسنة. أفمن الكبر ذاك؟ قال (لا، إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس).

قال أبو الأحوص: رآني رث الثياب فقال: "هل لك من مال" قلت: من كل المال أعطاني الله من الإبل والنعم قال صلى الله عليه وسلم "فلير عليك".

وإنما يرى ملبوسا ومطعوما وفي عون الناس.

وتروي أم المؤمنين عائشة: كان نفر من أصحاب رسول الله ينتظرونه فخرج يريدهم، وفي الدار ركوة فيها ماء، فجعل ينظر في الماء ويسوي لحيته وشعره، قلنا: يا رسول الله أنت تفعل هذا؟ قال: "نعم إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهئ من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال".

وهو لا ينهى عن الطيبات والله تعالى يأذن للناس بالزينة وبالطيبات من الرزق (٣٢-٣٣) الأعراف {يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين. قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون}[٢٩].

(٢٩) راجع كتابنا مالك بن أنس إمام دار الهجرة طبعة دار المعارف (الغناء في المدينة).

١٧- الفروسية:

والمجتمع الرباني كله بطولات. وبناء الرجال وإعداد الأبطال فيه إحدى الضرورات. وكان صلى الله عليه وسلم يقول: "كل شئ ليس من ذكر الله فهو لعب إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشي الرجل بين الغرضين، وتعلم الرجل السباحة"، ويحث الرجال على تعلم الرماية واللواتي يلهون في دورهن على العمل فيها بقوله "علموا أبناءكم السباحة والرماية، ونعم لهو المؤمنة في بيتها المغزل"(٣٠).

ومن سلامة الأبدان نظافة الأسنان. يقول لبعض الوفود: "مالي أراكم تأتوني قلحا (صفر الأسنان)، استاكوا لولا أن أشق على أمتي لفرضت عليهم السواك كما فرضت عليهم الوضوء".

١٨- الرجاء والاستغفار:

ورسول الله يذكر البشر بواجب الشكر لواهب الحياة بالعمل الصالح فيقول: "نعمتان مغبون فيهما أكثر الناس: الصحة والفراغ"، ويبشر من فاته من الواجب شئ بغفران الله للذنب الذي يلم به

---

(٣٠) يقول النبي مبشرا أمته: "ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بسهمه"، ثم ينتقل بهم إلى الأمر بالتزام الأهبة ومداومة الدربة على الرماية وركوب الخيل ويؤثر الرماية لحسمها في المعارك "ارموا واركبوا، وإن ترموا أحب إلي من أن تركبوا ومن تعلم الرمي فنسيه فليس منا".

ورأى جمعا يتبارون في المرمى. فقال يكرمهم ويشحذ عزيمة بعضهم "ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميا. ارموا وأنا مع بني فلان" فأمسك الفريق الآخر فقال لهم: "ما لكم لا ترمون؟"، قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ - يريدون ألا يتفوقوا على فريق هو معه - قال: "ارموا فأنا معكم كلكم".

ليعيش في فضله ورجاء فضله فيقول "ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن، حتى الشوكة يشاكها، إلا حط الله بها من خطاياه"، فما أكثر الحطيطة وأعظم العفو.

ولما لاحظ بعض الصحابة جلد رجل ونشاطه في سعيه للرزق وقالوا: لو كان هذا في سبيل الله! قال عليه الصلاة والسلام:"من كان يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله" فالمسلم العامل مأجور في أكثر الأحوال.

والإسلام في تقدم ما تعاقب الثقلان ورسول الله هو القائل "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها.." وهو توكيد لحفظ الدين، وتنديد بالمنفرين أو المقنطين، وفي ذلك الباب قوله: "إذا سمعت الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم"، فالناس دوما في فضل الله مادامت الصلاة والدعاء والعمل الصالح والتوبة والاستغفار[٣١].

(٣١) يقول الشعبي (١٠٥) شيخ المحدثين عن الاستغفار: (عجبت ممن يقنط ومعه الممحاة، قيل وما الممحاة؟ قال: الاستغفار).

١٩- المجاهرون:

وهو عليه السلام دائم الاستغفار لأمته ليغفر الله ذنوب المذنبين أو يسترها، ويشدد على المجاهرين بخطاياهم ليحفظ للمجتمع صفاءه، وللمذنب أمله في التوبة. يقول: "اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها، فمن ألم بشئ فليستتر بستر الله" والله عفو كريم إلا عن المجاهرين. يقول رسول الله "كل أمتي معافى إلا المجاهرين. وإن المجاهرة أن يعمل الرجل عملا ثم يصبح – وقد ستر الله عليه – يقول أنا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات بستر ربه، ويصبح بكشف ستر الله له".

والمجاهرة عدوان على الجماعة واستنفار لها لمقاومة إنسان لا يبالي بعذاب الله أو عقاب الحكام أو إيذاء الجماعة. وفي كل ذلك فتنة.

obeikandl.com

٢٠- المراءون:

والمسلم الحق كالذهبة الحمراء نقي الظاهر والباطن يريد الله بعمله. والمراءون يخادعون أنفسهم.

جاء رسول الله رجل يقول: إن بني سلمة كلهم يقاتل. فمنهم من يقاتل للدنيا، ومنهم من يقاتل نجدة ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله، فأيهم الشهيد؟ قال صلى الله عليه وسلم: "كلهم إذا كان أصل أمره أن تكون كلمة الله هي العليا".

أما المراءون ففيهم قوله: "إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به فعرفه الله نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت فإنك قاتلت لأن يقال جرئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن وأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فماذا عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن... قال كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه كلها فعرفها. قال: ما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيلي تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال كذبت ولكنك فعلت ليقال جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار".

فإذا غلب على العمل قصد العبادة كان للعامل من الأجر بقدر ما غلب من قصده. والناس يتفاوتون، فهو عليه الصلاة والسلام يقول: "إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض".

وهو عليه الصلاة والسلام دائم الاستغفار للمقصرين يقول: "إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة".

ويستغفر لمن يلم بذنب أو يعقد عن الأمر بالمعروف ويحذر من مغبة القعود عنه.

تقول أم المؤمنين عائشة: "دخل النبي صلى الله عليه وسلم فعرفت في وجهه أنه حضره شئ فتوضأ. ما كلم أحدا. ولصقت بالحجرة أسمع ما يقول فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: "يا أيها الناس إن الله يقول لكم مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، قبل أن تدعوا فلا أستجيب لكم، وتسألوني فلا أعطيكم، وتستنصروني فلا أنصركم، فما زاد عليهن حتى نزل".

٢١- مع الصحابيات:

وصى رسول الله المسلمين بالنساء في شتى المواقف وخصهن في آخر خطبة له. والمرأة نصف الناس، ومنه المجاهدات والعابدات والسائلات في أمور دينهن، والمطالبات بحقوقهن. ورسول الله يسوي بينهن وبين الرجال، كما أمر الله، إلا فيما تختلف فيه وظائفهن الطبيعية. وبهذا خرجن إلى المساجد للجماعات، وملكن أمرهن.

وجعل رسول الله لهن يوما يعلمهن كما طلبن ولما شاركن في الحرب لم يقف جهدهن عند إغاثة الجرحى وحمل الماء أو التطبيب في آخر المسجد بل منهن من اخترطن السيوف أو حملن آلات القتل ومنهن صفية بنت عبد المطلب قتلت اليهودي المتربص بالمسلمين.

(أ) شكت خنساء بنت خدام أن أباها زوجها دون الرجوع إليها وهي ثيب، فقضى صلى الله عليه وسلم أن يلحقها بهواها فتزوجت أبا لبابة.. وهو صلى الله عليه وسلم القائل: "أمروا النساء في أنفسهن"، والثيب تصرح بقبولها أما البكر ففي سكوتها إذن.

وكان يقول: "خياركم خياركم لنسائهم" ويقول: "خدمتك زوجتك صدقة"، وينهى عن إخفاء الحقيقة عنها بقوله: "إذا خطب أحدكم المرأة وهو يخضب بالسواد فليعلمها أنه يخضب".

لنستمع إلى محاورته ومصابرته دفاعا عن النساء ودفعا إلى الزواج:

(ب) جاءه شاب، فيه حمق، يطلب إليه أن يصرح به بالزنى! فوسعه حلمه، وراح يعلمه: فسأله: "هل ترضاه لأمك" قال الشاب لا. قال: "وكذلك الناس لا ترضاه لأمهاتهم" ثم قال: "هل ترضاه لأختك" قال الشاب لا، قال: "وكذلك الناس لا ترضاه لأخواتهم".

ثم قال: (هل ترضاه لبنتك) قال لا. قال "وكذلك الناس لا ترضاه لبناتهم..."، فدعا له رسول الله ومسح على قلبه فشفاه الله من دائه.. وفي تعدد الزوجات منجاة لمثله وللناس.

(ج) وإليك بعض السنن المأثورة عن بريرة: كانت "مولاة" لأناس من الأنصار واستعانت بأم المؤمنين عائشة في مبلغ من المال الذي كاتبت عليه قومها ليعتقوها فأعانتها واشترط القوم أن يبقى ولاؤها لهم فقال صلى الله عليه وسلم: "الولاء لمن أعطى الثمن". وكان زوجها مغيث "مولى" فاختارت بعد عتقها فراقه. فأصبح في المدينة يبكي وقدم إلى رسول الله يستشفعه ليشفع إلى بريرة وقد أصبح ولاؤها لعائشة. ورق نبي الرحمة لبكائه فكلمها.

قالت بريرة: أتشفع يا رسول الله أم تأمر؟ قال: بل أشفع.

قالت: لا أريده.

فجعل النبي عليها عدة المطلقة.

وأصبح لبريرة مكانة في المدينة يفاخر بها عبد الملك بن مروان إذ هو خليفة (وهو عم عمر بن عبد العزيز وصهره وأبو الخلفاء الأربعة). فيقول كنت أجالس بريرة بالمدينة فكانت تقول لي: يا عبد الملك إني أرى فيك خصالا وإنك لخليق أن تلي هذا الأمر، فإن وليت فاحذر الدماء فإني سمعت رسول الله يقول: "إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها، بملء محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق"، وكأنها كانت تعرف ما سيريقه من دم في سبيل الملك أو كان يروي رأيها عن ندم.

(د) وتجيئه خولة بنت ثعلبة تشكو زوجها إذ قال لها: أنت علي كظهر أمي، فخافت أن لا تحل له، فتغشاه صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشاه عند نزول القرآن ثم سري عنه فقال: "يا خولة. قد أنزل الله فيك وفي صاحبك" ثم قرأ {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله} إلى قوله {للكافرين عذاب أليم} الآيات من ١ إلى ٤ الخاصة بالظهار من سورة المجادلة.

قال رسول الله: "مريه أن يعتق رقبة". قالت: والله ما عنده ما يعتق.

قال: "فليصم شهرين متتابعين". قالت: والله إنه شيخ كبير ما له من صيام.

قال: "فليطعم ستين مسكينا وسقا (ستين صاعا) من تمر". قالت: يا رسول الله والله ما ذاك عنده.

قال: "سنعينه بفرق (زنبيل) من تمر" قالت: وأنا سأعينه بفرق.

قال: "قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه ثم استوصي بابن عمك خيرا".

وفي خلافة عمر مر بعجوز فجعل يحدثها وتحدثه وتساءل رجل عن هذه العجوز.

قال عمر: "ويلك هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو أنها وقفت إلى الليل ما فارقتها إلا لصلاة ثم أرجع.

وسن صلى الله عليه وسلم الحكم ذاته جزاء لمن أفطر عامدا بمخالطة زوجته في رمضان، فأمره بالكافرة وظهر العجز عن العتق ثم عن الصوم ثم عن الإطعام فأعانه رسول الله بوسق من تمر

ليتصدق به. قال الرجل: على غيرنا؟ فوالله إنا لجياع ما لنا شئ! قال نبي الرحمة "فكلوه"، وقال "هذه تجزئ عنك ولا تجزئ عن غيرك"(٣٢).

(هـ) وقدمت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهي أخت عثمان لأمه، إلى المدينة فارة بدينها من قريش بعد صلح الحديبية وفيه اشترط رد من جاء إلى النبي من قريش، وقدم أخوها في طلبها فنزلت الآية ١٠ من سورة الممتحنة {يا أيها الذينآمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن..} فكانوا يمتحنونهن ليتحققوا من أنهن ما خرجت طلبا لزواج أو فرارا من زواج، وإنما لأنهن مسلمات مؤمنات.

وتزوج من أم كلثوم بنت عقبة مسلمون عظماء: زيد بن حارثة فلما قتل عنها تزوج منها الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله وحواريه، فلما طلقها تزوج منها عبد الرحمن بن عوف، فولدت له إبراهيم وحميدا وهما فقيهان تابعيان، ومات عنها فتزوجها عمرو بن العاص.

(و) أو تجيئه امرأة تقول: يا رسول الله إني وهبت نفسي لك ويقول رجل يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن بك حاجة. قال عليه السلام "هل عندك شئ تصدقها إياه"، قال الرجل: ما عندي إلا إزاري قال النبي: "إن أعطيتها إياه جلست ولا إزار لك"، فالتمس شيئا.

قال: ما أجد شيئا قال: "التمس ولو خاتما من حديد"، فلم يجد. قال: "هل معك شئ من القرآن" قال الرجل: نعم معي سورة كذا وكذا.

قال: "قد زوجتكها بما معك من القرآن"، أو قال فعلمها من القرآن أو قال علمها عشرين آية وهي امرأتك.

---

(٣٢) فلما كان عبد الرحمن بن الحكم خليفة للأندلس، واقع امرأته في رمضان، وجمع العلماء يستفتيهم، فأفتاه شيخ المالكية يحيى بن يحيى أن يكفر بصيام شهرين متتابعين فلما خرج الفقهاء راجعوا يحيى (كيف لم يفته بمذهب مالك وهو التخيير بين العتق والصوم والإطعام)؟ قال لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه أن يخالط كل يوم ويعتق رقبة.

ومن تخريجات الإمام مالك يوم استفتاه الرشيد في كفارة الحنث في يمين أقسمها، إفتاؤه الرشيد بصيام ثلاثة أيام، فقال الرشيد: أليس الله تعالى يقول {فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام} فأفمتني مقام المعدم (الذي لا يجد ما يطعم المساكين؟) قال مالك: "يا أمير المؤمنين كل ما في يدك ليس لك".

ومع أن هذا ليس مذهب الحنفية فقد أفتى به عيسى بن أبان من فقهائهم والي خراسان إذ حنث في يمين.

(ز) وتجيئه زينب بنت معاوية زوجة عبد الله بن مسعود، وحدها أو مع أخرى، تستفتيه قائلة إني امرأة صناع وليس لي ولا لولدي ولا لزوجي شئ ويشغلوني فلا أتصدق فهل لي في النفقة عليهم من أجر؟ ويقول لها: "لك أجر ماأنفقت عليهم"، أو يقول: "لك أجر القرابة والصدقة".

(ح) أو تجيئه فاطمة بنت قيس تقول: إن لي سبعين مثقالا من ذهب، فيقول صلى الله عليه وسلم "اجعليها في قرابتك" أو تجيئه تقول بعد إذ طلقها زوجها أبو حفص بن المغيرة إن معاوية وأبا حذيفة خطباها، تستشيره فيمن تفضل – وهي من المهاجرات الأوليات ذات عقل وكمال وفقه – فقول: "أما معاوية فصعلوك لا مال له. وأما أبو حذيفة فلا يضع عصاه عن عاتقه". وأمرها بأسامة (بن زيد) فتزوجته.. وبورك لها من كل وجه: تزوجت حبه وابن حبه. وفي دارها انتخب الستة أمير المؤمنين عثمان، وعايشت أصغر قواد النبي شبابا وآخرهم قيادة، وأول قواد أبي بكر إذ أنفذه أبو بكر وعاد مجللا بالنصر.

(ط) أو تجئ أنصارية تسأل عن قبلة الصائم: أمفطرة هي؟ فتخبرها أم سلمة أن رسول الله يقبل وهو صائم. ورجعت إلى زوجها بالخبر. وأعادها بالسؤال وهو يقول: لسنا كرسول الله يحل الله له ما يشاء. فلما أخبرته أم المؤمنين قال: "ألا أخبرتها أني أفعل ذلك؟" قالت أخبرتها. ورجعت الأنصارية إلى زوجها بالخبر فزاد شرا وقال: لسنا كرسول الله يحل الله لرسوله ما شاء. فغضب رسول الله وقال: "والله إني لأتقاكم لله وأعلمكم بحدوده".

وما سألت عنه الأنصارية سأل عنه عمر بن الخطاب إذ جاء يقول: صنعت اليوم أمرا عظيما قبلت وأنا صائم، قال صلى الله عليه وسلم "أرأيت لو مضمضت بالماء" قال عمر لا بأس به قال: "فمه" بمعنى لا بأس به.

(ى) ولقد يستنشد الخنساء شعرها ويقول: "هيه يا خناس"، ولا غرو إذا خطبت بعد ذلك أبناءها الأربة لتشجيعهم قبل معركة القادسية فيستشهد الأربعة وينتصر المسلمون، وتقول: "الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في رحمته".

(ك) وتأتيه الشفاء بنت عبد الله[٣٣] وتروي قولها أم المؤمنين أم سلمة "أتيت رسول الله أسأله.. فجعل يعتذر إلي، وأنا ألومه. فحضرت الصلاة فخرجت فدخلت على ابنتي وهي تحت

---

(٣٣) من قوم عمر وزوجها من جلسائه كانت تعلم أم المؤمنين حفصة بنت عمر الكتابة وكان النبي يزورها ويقيل في بيتها، وكان له في بيتها فراش وإزر ينام فيه فبقى عندها حتى أخذه مروان بن الحكم حاكم المدينة

شرحبيل بن حسنة فوجدت شرحبيلا في البيت. وأقول: قد حضرت الصلاة وأنت في البيت! وجعلت ألومه، فقال يا خالة كان لنا ثوب فاستعاره رسول الله صلى الله عليه وسلم! فقلت بأبي وأمي إني كنت ألومه وهذه حاله ولا أشعر!".

قال شرحبيل ما كان إلا درعا رقعناه.

(ل) وجلس إليه نسوة من قريش يتعلمن ويستكثرن، عالية أصواتهن واستأذن عمر فتبادرن إلى الحجاب، فدخل ورسول الله يضحك، قال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله. قال صلى الله عليه وسلم:"عجيب أمر هؤلاء اللاتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب"ن قال عمر: فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله. ثم قال: يا عدوات أنفهسن أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلن أنت أفظ وأغلظ من رسول الله.

قال رسول الله: "ايه يا بن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك".

وما فاضل النساء في ردهن: فالفضل كله لله ورسوله وإنما أردن ما قاله الله سبحانه عن رسول الله {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}.

(م) ومن النساء من عهد الرسالة المطالبات بالمساواة في الحرب ناسيات أن رسول الله سواهن في الحقوق السياسية والشخصية والدينية تماما يوم بايعهن بما بايع الرجال عليه، بل هو أذن لهن أن يساعدن المحاربين إن شئن حين طلبت ذلك أميمة بنت قيس الغفارية وقال: "على بركة الله".

فهذه أسماء بنت يزيد بن السكن ابنة عمة معاذ بن جبل، تفد إلى مجلس رسول الله فتقول: أنا وافدة النساء إليك، إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة... وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم... وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وشهود الجنائز والحج بعد الحج وأفضل من ذلك كله الجهاد في سبيل الله. فأما نشاركم في هذا الأجر والخير؟ فالتفت إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: "هل سمعتم مقالة أحد قط أحسن من مسألتها في أمر دينها؟". قالوا ما ظننا امرأة تهتدي إلى مثل ذلك. فالتفت النبي إليها وقال:

لمعاوية، وكان عمر يقدمها في الرأي وولاها شيئا من أمور السوق لمراقبتها، وهي تروي كيف لقب عمر بأمير المؤمنين كما ستقرأ بعد.

"افهمي أيتها المرأة وأعلمي من وراءك أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله"، فانصرفت وهي تهلل.

ولأسماء ذاتها سجل في الحروب يوم اليرموك لا يساميها فيه إلا القليلون فيومذاك قتلت تسعة من الروم! في حين قتلت أم حكيم – بنت أخت خالد – يوم مرج الصفر سبعة! ومن قبلها أصيبت نسيبة بنت كعب أم عمارة يوم اليمامة[٣٤] باثنتى عشر جراحة! ودافعت دفاع الأبطال عن شخص النبي في أحد حتى أوقفها سيف العدو. وهي من أصحاب بيعة العقبة وبيعة الرضوان. فليس النساء بمقصورات ولا محجورات، وإنما القادرات يؤدين ما يقدرن عليه. وكانت فاطمة الزهراء وعائشة أم المؤمنين وغيرهما يحضرن المعارك ويساعدن بما يسعهن. ولقد غزت أم عطية الأنصارية مع رسول الله سبع غزوات.

(ن) ولم يكن المجتمع ليخلو من بقايا الجاهلية.

يجئ أوس بن ساعدة الأنصاري وفي وجهه الكراهة فيقول: إن لي بنات وأنا أدعو عليهن بالموت فيقول له رسول الرحمة: "لا تدع فإن البركة في البنات، هن المجملات عند النعمة، الممرضات عند الشدة، ثقلهن على الأرض، ورزقهن على الله عز وجل".

وهؤلاء المجملات للنعمة حريات بالزينة إذا شئن، فهذه فطرتهن، والمتجملات منهن في حلا لهن كواكب في داراتهن، ورسول الله حريص عليهن لو ظهرن حيث لا يجمل بهن. يقول صلى الله عليه وسلم "مثل الرافلة في الزينة في غير أهلها كمثل الظلمة يوم القيامة لا نور لها".

ولا يرضى لهن أن يتبذلن ولا للرجل أن يكون سخرة يقول: "لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال"، ويقول: "لعن اله المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء".

(س) ويدس النساء إليه دسيسا يعرفن أنه يمس شغاف قلبه ليتحسسن بره إن لم يوفدن إليه جهرة. فهذه حاضنة ابنه إبراهيم تقول لأبيه إنك تبشر الرجال بكل خير ولا تبشر النساء،فيسألها:

---

(٣٤) في هذه المعركة من معارك الردة استشهد صحابة عظماء، وكان النصر جزء استشهادهم. ومنهم زيد بن الخطاب كان طويلا طول عمر. عزم عليه عمر يوم أحد أن يلبس درعه فأجابه: ما أنت بأحق بالشهادة مني. فتركه عمر وتركه زيد.

"أصويحباتك دسسنك؟" وتجيب: هن أمرنني،فيقول: "ألا ترضى إحداكن إذا كانت حاملا من زوجها وهو عنها راض أن لها مثل أجر الصائم القائم في سبيل الله".

(ع) وهو يجاملهن في الموضع الجميل حين جلين له عائشة يوم عرسها، فقرب لهن لبنا وتمرا وقال: "كلن واشربن".

قلن: نحن صوم.

قال (كلن واشربن ولا تجمعن جوعا وكذبا).

(ف) وهؤلاء نسوة من أهل المدينة يكدن لدرة بنت أبي لهب، إذ هاجرت إلى المدينة مسلمة. فقلن لها تبت يدا أبي لهب وتب. ما تغني عنك هجرتك. فشكت للنبي فسكنها حتى صلى الظهر ثم جلس على المنبر وخطب: "أيها الناس مالي أوذي في أهلي فوالله إن شفاعتي لتنال بقرابتي". ودرة من المحدثات بحديث "خير الناس أقرؤهم وأتقاهم وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم".

(ص) وهذه أم حرام بنت ملحان زوج عبادة بن الصامت ترجو رسول الله أن يمكنها من الغزو في البحر! لعل الله يسلكها في سلك المحاربات ذوات البطولات كأختها أم سليم (أم أنس وزوج أبي طلحة) وغيرها ولم يكن المسلمون قد عرفوا الغزو في البحر! فبشرها به وهو ينظر إلى مستقبل الإسلام.

ففي سنة ٢٧ عبرت البحر مع المسلمين في عمارة بحرية لمعاوية لغزو قبرص ونزلت إلى البر ثم ركبت دابة أوقعتها فماتت.

أما عبادة فأرسله عمر لتفقيه أهل الشام، واختلف مع معاوية وهو أميرها، فتركه إلى المدينة، لكن عمر أعاده إلى الشام وكتب إلى معاوية: لا إمرة لك عليه...

ومن الصحابيات الربيع بنت معوذ (الأنصارية)، تبايع تحت الشجرة، وتغزو مع رسول الله وتخدم الجيش، وتقوم على الجرحى وتحملهم إلى المدينة ويبرها رسول الله ويزورها ويحضر عرسها.

لقد سمع يومذاك الجويريات يضربن بالدف يمجدن يوم بدر حتى إذا سمع قولهن: "وفينا نبي يعلم ما في غد"، قال لمن تغني: "دعي هذا وقولي الذي كنت تقولين".

٢٢- خير النساء:

وجاءته بمكة أم هاني بنت أبي طالب إذ هرب زوجها بعد الفتح تاركا لها عيالها منه فقال رسول الله: "خير نساء ركبن الإبل نساء قريش: أحناه على ولد وأرعاه على زوج في ذات يده".

ولما جاءته امرأة من خثعم تستفتيه، وهو راكب مردف الفضل بن العباس، جعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه. فجعل رسول الله يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر.. قال العباس يا رسول الله. لم لويت عنق ابن عمك؟ قال: "رأيت شابا وشابة فلم آمن الشيطان عليهما".

ولم يقل للأب رأيت كلا منهما ينظر إلى الآخر.

وتعلم المسلمون من عدم أمرها بستر وجهها، أن وجه المرأة ليس عورة.

obeikandl.com

٢٣- وهو صلى الله عليه وسلم حريص على الأسرة يقول:

"إياكم والدخول على النساء"، قال رجل يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ قال: "الحمو الموت"، والأحماء الرجال من أقارب الزوج وقد تتفتح لهم أبواب البيوت دون احتياط.

ومع عظم أدب الناس في حقه زارته أم المؤمنين صفية في اعتكافه في العشر الأواخر من رمضان ثم رجعت فصحبها إلى بيتها حتى إذا بلغا باب المسجد عند باب أم المؤمنين أم سلمة، مر رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله،فقال لهما: "على رسلكما إنما هي صفية بنت حيي" قالا: سبحان الله يا رسول الله..

فقال: "إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا".

ويروي أبو قلابة للصحابة قول رسول الله له عن أمهات المؤمنين: "ويحك يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير"، ويقول: لو تكلم بها بعضكم لعبتموها عليه.

وما هي إلا صورة الرحمة والرقة صورهما أبلغ العرب في أحسن تصوير.

٢٤- عصمة الله:

وهو بارز دائم الجلوس للناس فلما نزلت آية {والله يعصمك من الناس} صرف الحراس، ووسوس الشيطان لأهل الشرك في مكة وغيرها باغتياله، ومن ذلك بعض وقائع في المسجد وأمثالها في خارجه.

جاءه بالمسجد: عمير بن وهب الجمحي يطلب فداء ابنه وهب من أسرى بدر، ففاجأه النبي بقوله: "ما بال السيف في عنقك؟"، قال عمير... قال صلى الله عليه وسلم:"فما الذي شرطت لصفوان؟ (بن أمية الجمحي زعيم المشركين؟)" قال عمير: ما شرطت شيئا قال الرسول: "تحملت بقتلي على أن يعول بنيك ويقضي دينك والله حائل بيني وبينك".

قال عمير: أشهد أنك رسول الله... إن الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجر. وأسلم. وفرح المسلمون بإسلام عمير. وقال الرسول: "علموا أخاكم القرآن" فأطلقوا أسيره واستأذن في اللحاق بمكة يهدي للإسلام.

* * *

جاءه وفد بني صعصعة مسلمين فيهم عمار بن الطفيل وأربد بن قيس متآمرين على أن يشغله عامر بجداله حتى يعلوه أربد بسيفه وخرجا من الجدل بخفي حنين، وسأل عامر أربد أين ما كنت أمرتك به؟ والله ما على ظهر الأرض رجل هو أخوف على نفسي منك. وأيم الله لا أخافك بعد اليوم. قال أربد: لا تعجل. والله ماهممت بالذي أمرتني من أمر إلا دخلت بيني وبين هذا الرجل حتى ما أرى غيرك أو أضربك بالسيف.

وطفق رسول الله يدعو على عامر ثلاثين صباحا فمات بقرحة في حلقه. أما أربد فنزلت على جملة صاعقة أحرقتهما في الصحراء.

* * *

وجهز أبو سفيان بمكة رجلا لاغتياله فوفد على رسول الله بمسجد بني الأشهل بالمدينة فلما بصر به قال: "إن هذا الرجل يريد شرا وإن الله مانعي منه".

وأراد الرجل أن ينحني على الرسول فجذبه أسيد بن حضير من إزاره وسقط الخنجر الذي يخفيه، وسأله رسول الله فصدقه الخبر بعد أن استوثق من حفظ دمه. وخلى رسول الله سبيله.

قال الرجل: والله يا محمد ما كنت أخاف الرجال. فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت نفسي. ثم إنك اطلعت على ما هممت به مما لم يعلمه أحد، فعرفت أنك ممنوع وأنك على حق وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان. وأسلم الرجل.

* * *

وثمة أحداث غدر تتكرر يتجلى منها فضل الرسول وعظيم عفوه، ففي غزوة ذي إمر جلس رسول الله تحت شجرة وعلق سيفه، أو كان واضعا له في حجره، وطلبه رجل يدعى دعثور لينظره فلما أخذه قال أما تخافني؟ قال صلى الله عليه وسلم وما أخاف منك؟ قال أما تخاف ومعي السيف؟ قال: "لا.. يمنعني الله منك" فسقط السيف من يد الرجل فأخذه رسول الله وقال للرجل: "من يمنعك مني" قال: لا أحد.

قال تشهد أن لا إله إلا الله.

قال الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، والله إنك لخير مني. والله لا أكثر عليك جميعا أبدا. فعفا عنه رسول الله فانصرف إلى قومه يدعو إلى الإسلام.

وسنرى مثل ذلك في غزوة ذات الرقاع على يد رجل يدعى غورث. وسنرى مثله في الطواف بعد فتح مكة وفي يوم حنين مرتين.

٢٥- أمثال من البلاغة:

وهو يعلم المسلمين البلاغة بأسلوبه الذي لم يبلغه عربي وآلاف الأحاديث شهود.. وهي بين أن تكون تشريعا أو موعظة للأمة. فلها دقة النصوص وبلاغة الكلم الجوامع.

إليك بعض أمثلة: منها قوله عندما نزل القرآن بصدق الصبي الذي سمع، ثم أنبأ الرسول بكلمات عبد الله بن أبي (وفت أذنك يا غلام) فصدق السماع وفاء. ونقل الصدق وفاء، وهو يجمع معاني ذلك في كلمتين. وقال لسلمة بن أبي سلمة "هل جزيت سلمة؟" حينما زوجه بنت عمه حمزة بن عبد المطلب، وكان سلمة قد زوج أمه رسول الله بإذنها له. فالسؤال يفيد التوكيد على حسنة جزاء حسنة،وقوله: "الآن حمي الوطيس" وقوله: "نصرت بالرعب"، وقوله: "رفقا أنجشة بالقوارير" و "مطل الغني ظلم" و "الوحدة خير من جليس السوء" وقوله لأبي تميمة الهجيم: "إياك والمخيلة"، قال الرجل: يا رسول الله نحن قوم عرب فما المخيلة؟ قال: "سبل الإزار"، "الذي يجر إزاره خيلاء" وأمثال ذلك في غير السنن كثيرة(٣٥).

ولم يكن ﷺ يقرض الشعر، ولكنه يقول: "إن من الشعر لحكمة"، وكان "سلاح الشعر" من أسلحته. والبيت من الشعر يطوي الجزيرة العربية طي أعناق المطي لصحراء تستعذبه الأسماع. أو تتناقله لشهرة قائله، ولهذا كان شعراء المشركين من أبغض الخلق عنده، لقد أهدر دم كعب بن

---

(٣٥) و(السعيد من وعظ بغيره) و (كما تكونون يولى عليكم) و (أنزلوا الناس منازلهم) و (حصنوا أموالكم بالزكاة) و (مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها..) و (انظروا إلى من تحتكم ولا تنظروا إلى من فوقكم) و (حياة السخي بعد موته) وحمده الله في بعض أدعيته (حمدا ملء السموات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شئ بعد) و (المرء مع من أحب) و (المسلمون كأسنان المشط) و (لا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له) و (رحم الله عبدا قال خيرا فسلم أو سكت عن شر فغنم) و (ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها) و (المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم) و (أحبب حبيبك هونا ما فعسى أن يكون بغيضك يوما ما) و (ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) و (هدنة على دخن) و (الإيمان قيد الفتك) و (اشتدي أزمة تنفرجي) و (يا خيل الله اركبي) و (يد الله مع الجماعة) و (اليد العليا خير من اليد السفلى) و (الضعيف أمير الركب) و (أكثروا من ذكر هادم اللذات) (يقصد الموت) و (هذا يوم له ما بعده) يقصد يوم بدر. و (جدع الحلال أنف الغيرة) بعد أن زنت فاطمة لعلي وقال: "إن للقلوب صدءا كصدأ الحديد، وجلاؤها الاستغفار"،وقال عمن مات ولا ذاكر لهفي حرب أو فعال: "مات حنف أنفه".

وفي بلاغته ﷺ يقول الجاحظ: ما بلغنا عن أحد من جميع الناس أن أحدا قلد لرسول الله ﷺ خطبة واحدة.

زهير لما بلغه من قدحه فلما جاءه تائبا خلع عليه بردته. وذاع في الشعر أن يبدأ الشاعر بما تبدأ به قصيدة البردة (بانت سعاد).

وشعراء المسلمين من أقرب الصحابة إليه، وحسان بن ثابت أشهرهم لذيوع شعره وذكره وطول عمره، ولذلك أمره بسؤال أبي بكر وهو النسابة الخبير بدخائل الخصوم. وكانت قريش تقول: والله ما غاب شعر حسان عن ابن أبي قحافة (أبي بكر)، ثم ابن رواحة، وهو الأمير الثالث من أمراء مؤتة، يدخل التاريخ باستشهاده مثلما دخله بشعره في رسول الله، أما كعب بن مالك فيدخل التاريخ بكلام الله عنه في سورة التوبة (الآية ١١٨) إذ صدق النبي عن أسباب تخلفه عن غزوة تبوك وصحت توبته وقبلها الله،وهو بعد من أصحاب بيعة العقبة وبطل من أبطال أحد الذين ذادوا عن رسول الله وثالث الشعراء الذين اشتهروا بالدفاع عن الإسلام في عهد رسول الله ﷺ.

والله تعالى يقول في سورة الشعراء ٢٢٤ – ٢٢٧: {والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون}.

* * *

ولم يقل لبيد شعرا بعد إسلامه. قال له عمر يوما أنشدني من شعرك قال: ما كنت لأقول شعرا بعد أن علمني الله البقرة وآل عمران. فزاد عمر عطاءه خمسمائة!

وكانت أم المؤمنين عائشة تكثر إنشاد قوله في الجاهلية:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب

ثم تضيف: "كيف لو أدرك زماننا هذا؟؟"

وكان زمن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم!!

كان عليه الصلاة والسلام يقول: "أمرت أن أكلم الناس على قدر عقولهم" وع ذلك لم نسمع على مدى التاريخ أحدا قال عن كلمة له: لو قال غيرها لكان أشمل أو أفضل، ولقد كان يفصل عنه الوافد إليه وهو يهلل، من حسن ما قال له.

هذا رسول الله في قومه وفي مسجده، مدرسة لمدارس لا تحصى على الزمان كله أما في بيته فحسبنا هنا قول أم المؤمنين عائشة: (وان يأتي علينا الشهر ما توقد في بيتنا نار، إن هو إلا

التمر والماء إلا أن نؤتى بلحيم).. وتقول: (كان يقم البيت ويخصف النعل ويطحن عن خادمه إذا أعيا. ومات، وليس في رفي شئ يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي).

رآه عمر وقد أثر في جنبه حصير ينام عليه، فقال له قد أثر في جنبك رمل الحصير، وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالسا وقال: "أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا".

لقد مهد للفقراء والأغنياء طريقهم إلى السعادة فقال (إياكم والطمع فإنه الفقر الدائم) وآتانا الوسيلة إلى حب الله، والناس، حين قال: "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس".. وأمكن أهل الدنيا من كل ما فيها حيث قال: "من أصبح آمنا في سربه معافى في جسده وعنده قوت يومه فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها" وصدق رسول الله ﷺ.

قال أنس بن مالك وقد قدمته أمه إلى رسول الله ليخدمه فقضى معه عشر سنين: ما سبني قط ولا ضربني ولا انتهرني ولا عبس في وجهي ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني، فإذا عوتبت من أحد من أهله قال: "دعوه فلو قدر لكان" وما قال لشئ صنعته أسأت أو بئس ما صنعت.

وسيقول قتادة بعد سنين قليلة، كما نأتي أنس بن مالك وخبازه قائم فقول: كلوا. فما أعلم أن النبي ﷺ رأى رغيفا مرققا حتى لحق بربه، ولا رأى شاة سميطا بعينه قط.

الفصل الثاني

دولة الإسلام

{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}

الحشر ٧

{قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم} الزمر ٥٣

"من رأى من أميره ما يكرهه،فليصبر ولا ينزعن يدا من طاعته" حديث شريف

بلغ المجتمع الذي نشأه رسول الله ﷺ على التقوى أوجه إيثارا لنعيم الآخرة على الحياة الدنيا، حتى ليرمي المحارب تمرات في يده يطعمها ليعجل إلى الجنة. وغزوات الرسول وسراياه متلاحقة في أرجاء جزيرة العرب. والحرب ميدان لا ضريب له في تقوية الأسباب إلى الله، ورسول الله المثل الأعلى لصحبه في الحرب أو السلم، فهؤلاء هم الربانيون من أي جهة بصرت بهم.

كانت الدعوة في مكة جهادا بالحكمة والموعظة الحسنة والنذارة والبشارة، لكن المجال انفسح في المدينة باتساع سلطان الشريعة، وارتفاع شمس الدولة الناشئة، وتكالب العدو عليها من الداخل والخارج، وبالجهاد العسكري عنصرا جديدا للدفاع عنها، وبالآيات أو السور تنزل سلسلا من سلسل تشد أزر الرسول، وتبهت المنافقين وتكبت المشركين وتفصل الأحكام للدولة.

* * *

أقام عليه السلام بمكة بعد مبعثه اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما (من ١٧ رمضان سنة ٤١ لميلاده) يجاهد ويجادل بالقرآن وحده، لذلك نزل فيها من القرآن ما يقارب ضعفي ما نزل بالمدينة بنسبة عدها بعض ١٩ إلى ٣٠ بمكة و ١١ إلى ٣٠ في المدينة، وكان

مجتمع يشق الطريق إلى العالم بأيدي المؤمنين، ولذلك كثر أن يخاطبهم القرآن المدني فيقول "يا أيها الذين آمنوا".

وبعد أن كان التشريع المكي يحتوي كليات في معاني: التوحيد، والنبوة، والبعث والحساب والتقوى ودلالاتها من نبوءات وأمثال وقصص (تاريخ) وتحد بعظائم الخلق واستدعاء العقل والفطرة والحس لترى وتفكر، أو وعيد أو تنديد بما يضمر المشركون أو يعلنون، تلاحق الوحي بالتشريع التفصيلي في المدينة وتكاثرت السنن المفصلة أو الشارحة أو المبينة للحدود والأحكام أو القواعد الهادية إليها، وبهذا تكاملت شريعة المجتمع العالمي الذي نزلت الرسالة إليه.

وكان لزاما أ، يكمل الدين في حياة الرسول بالقول الذي تسمعه الجماعة أو الفعل الذي تبصر به أعينها ويتجلى لها ما يتحقق من وعود نزل بها الوحي بمكة، أو أخبر بها رسول الله بمكة أو بالمدينة. وكانت الفتوحات الفكرية للدين في أنفس المسلمين الذين يتكاثرون صباح مساء والانتصارات العسكرية التي تخفق أعلامها في الآفاق، بعيدة المدى متعددة الاتجاهات، فأصبح أصحابها القدوة التي يصدق عليها وصف (مجتمع النبوة)، وسنرى منه أعظم ساسة الدول وقادة الجيوش في تاريخ العالم، وقضاة العدل، وولاة الحكم، وفلاسفة الأخلاق، ومعلمي الأمم، فكل شئ في هذا المجتمع يصدق عليه وصف "العظيم" أو درجة "الأعظم"، فرسول الله فوق المفاضلة تقصر الكلمات دون أوصافه.

ودخل الناس في دين الله أفواجا لتنتشر علوم الإسلام في كل عصر بالأصول الأربعة: نص القرآن أو السنة أو الإجماع أو الاجتهاد عند عدم وجود النص، برد الأمر إلى معاني القرآن أو سنة الرسول أو ما أجمع عليه المسلمون، فأصبح الاجتهاد "أداة محركة" بلوغ أغراض الشريعة حيث لا نص وأمست طريقته منهجا علميا للعالم أبدا.

ومن اجتهادات الصحابة وغزارتها آلت إلى المسلمين ثروة فكرية تتنامى في كل عصر بعمل الأئمة وتخريجات المجتهدين في آثارهم.

وكان من توفيق الله للمسلمين أن يبدأ الصحابة تطبيق أصل "الاجتهاد" في معرض عملي بحت هو "وظيفة القضاء" وعلى عين رسول الله ﷺ إذ يأمر عمرو بن العاص أن يقضي في خصومة ويسأل عمرو: وأنت حاضر يا رسول الله؟ فيجيزه قائلا: "إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر"، وكرر رسول الله اعتماد ذلك الأصل لمعاذ بن جبل إذ أرسله إلى اليمن وكرره لعلي، كما أضاف في مجلسه للقضاء غير مرة أصلا آخر هو القضاء بالظاهر، فقال إنه يحكم على نحو ما يسمع من "البينة".

والبداية العملية تخلع طابعها على ما تلاها، ومن ثمة بلغ العلم الإسلامي أوجه، وتصدره الفقه.

ولا يتسع المجال إلا لأمثال على تكامل فقه الدين والدنيا بالمدينة فالتطهر للصلاة نزل تشريعه بالمدينة (المائدة ٦ والنساء ٤٣)، وإن كان معمولا به من قبل وكان تطهير الثياب قد نزل في سورة المدثر وهي رابعة السور المكية. وفي سورة النساء "وهي مدنية" بين الله صلاة الخوف (١٠١ – ١٠٣) وفي سورة الجمعة – وهي مدنية – قرر صلاة الجمعة، وإن جمع المسلمون قبل. وفي المدينة وضعت صيغة الأذان للصلاة والمسلمون يصلون من بدء الرسالة. وفي العام الثاني للهجرة تحولت القبلة إلى البيت الحرام إلى (الكعبة) بنص القرآن، ثم فرض صيام رمضان (البقرة ١٨٣ – ١٨٧).

وبالمدينة فصلت الزكاة وتكاملت الفرائض بالحج في سورة الحج(٢٥ – ٣٧) وبين الرسول مناسكه في حجته بعد أن سبق أبو بكر فحج بالناس، كما ولي على الحج قبله عتاب بن أسيد وهو والي مكة.

ونص القرآن في سورة البقرة – وهي مدنية – على التراضي في التعامل، وعلى البينة في التقاضي، وعلى الكتابة والرهن مما يحفظ الحقوق، وبين الحدود في الزنا والسرقة والقذف والحرابة في سورتي النور والمائدة وهما مدنيتان، وبينت السنة حد الخمر بعد إذ تدرج القرآن من تأثيمها بمنع شاربها من الصلاة إلى تحريمها، وكذلك حرم الربا بعد أن بين رذائله في مناسبات سابقة تبدأ من سورة الروم بمكة (٣٩) لتنتهي بالآيتين ٢٧٨ – ٢٧٩ من سورة البقرة {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله}.

وقرن الله الزكاة بالصلاة في كثير من المواضع، فقرن حق الفقير بحق الله على العباد: وزاد الزكاة بيانا بالمدينة وعدد مصارفها (التوبة ٦)، وفي الآية الأخيرة جعل تحرير الرقيق مصرفا من مصارف هذا الركن الركين من أركان الإسلام.

وفي المدينة أذن الله للمسلمين بالحرب، وبين تشريع الغنائم، وحق بيت المال وحقوق المحاربين وواجباتهم.

وفي الجانب الاجتماعي جعل إزالة المنكر واجبة على جميع الأمة وإن كانت فرض كفاية على الأفراد {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله} آل عمران ١١٠ – وأوجب الاتحاد، فقال تعالى {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة

الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا} آل عمران ١٠٢ – ١٠٣، وأمر بالصلح بين المتخاصمين (الحجرات ٩) وأعلن أن الناس كلهم سواء (الحجرات ١٣).

وبعد نزول سورة براءة: (التوبة) (الآية ٢٨)، وهي من أواخر السور نزولا، أصبح المشركون منبوذين، فدخلوا في الإسلام حين سمعوه تعالى يقول: {إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا} وفي سورة (المنافقون)، وهي مدنية حذر القرآن المنافقين وحذر منهم لكثرة ما أساءوا للنبي وللإسلام، ومع ذلك لم يعتبرهم النبي محاربين، وكان تربصهم بالمسلمين وجمع القرآن لهم في مواضع كثيرة في مكان واحد مع الكفار تفويضا للنبي في أمرهم، فاختار سعة الصدر وجمال الصبر. وقد كان بينهم وبين كثير من المسلمين روابط القربى، وبهذا الصبر حقنت الدماء وسدت الأبواب للوشاية والنميمة والخرص والتخمين. ومع نزول سورة (المنافقون) كان ﷺ يؤثر الأمل في توبتهم، وكان الله يقيه شرورهم.

في أحد رجعوا مع ابن أبي وكان قد أسلم بعد موقعة بدر فنقص جيش المسلمين إلى سبعمائة يواجهون ثلاثة آلاف!

وفي الخندق قالوا إن بيوتنا عورة – وما كانت بعورة – فرجعوا. وفي إجلاء يهود بني قينقاع كان ابن أبي يرجو لهم كما صنع في إجلاء بني النضير. وفي غزوة (بني المصطلق) قال ليخرجن الأعز منا الأذل، وأشارت إليه سورة (المنافقون) وفي حديث الإفك كان يستوشي الفرية، وفي تبوك رجع ومعه المنافقون. ومع ذلك عاش حتى مات علىفراشه بعد عودة النبي من تبوك سنة تسع.

العهد مع اليهود:

وضع رسول الله أساس الحياة في المدينة بمؤاخاة كاملة بين المهاجرين والأنصار، فقال لهم: "تآخوا في الله أخوين أخوين" وأعقبها بالمعاهدة بين المسلمين واليهود المقيمين فيها والمحدقين بضواحيها وهي معاهدة يتعين أن تقرأها أجيال المسلمين لاستظهار أثرها في إطار الدولة ودقة نصها واتساع سلطان الإسلام فيها، ولما بها من طابع دولي وتاريخي.

(هذا كتاب من محمد رسول الله بين المؤمنين والسملمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم:

١– أمة واحدة من دون الناس.

٢- المهاجرون من قريش على ربعتهم[٣٦] يتعاقلون بينهم[٣٧] وهم يفدون عانيهم[٣٨] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- بنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- بنو الحارث والخزرج على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- بنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- بنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- بنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٣- أن المؤمنين لا يتركون مفرحا[٣٩] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

٤- وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[٤٠] ظلم أو إثما أو عدوانا أو فسادا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان والد أحد منهم.

---

(٣٦) الحال التي هم عليها أي أمرهم وشأنهم.

(٣٧) إعطاء الديات.

(٣٨) العاني هو الأسير.

(٣٩) المفرح – المثقل بالدين.

٥- ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافر على مؤمن.

٦- وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

٧- وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

٨- وأن سلم المؤمنين واحدة. لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

٩- وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا[٤١].

١٠- وأن المؤمنين يبئ[٤٢] بعضهم عن بعض.

١١- وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه.

١٢- وألا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن.

١٣- وأنه إن اعتبط مؤمن قتيلا عن بينة فإنه قود به[٤٣] إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

١٤- وأنه لا يحل لمؤمن أقر ما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه وأن من نصره فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة لا يؤخذ منه عدل ولا صرف[٤٤].

١٥- وأنكم مهما اختلفتم فيه من شئ فإن مرده إلى الله وإلى محمد.

١٦- وأن اليهود يتغفون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

١٧- وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[٤٥] إلا نفسه وأهل بيته.

---

(٤٠) الدسيعة: العطية.

(٤١) كل فئة غازية ترجع يحل محلها غيرها.

(٤٢) يبئ: يتعامل.

(٤٣) القود: القصاص.

(٤٤) التوبة.

(٤٥) يهلك.

١٨- وأن ليهود بني النجار ما ليهود بني عوف.

- وأن ليهود بني الحارث ما ليهود بني عوف.

- وأن ليهود بني ساعدة ما ليهود بني عوف.

- وأن ليهود بني جشم ما ليهود بني عوف.

- وأن ليهود بني ثعلبة ما ليهود بني عوف. إلا من ظلم نفسه فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

- وأن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وأن البر دون الإثم[٤٦].

- وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.

- بطانة يهود كأنفسهم.

١٩- وألا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.

٢٠- وألا ينحجز على ثأر جرح وأن من فتك فبنفسه فتك، وبأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أثر هذا.

٢١- أن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

٢٢- وألا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.

٢٣- وأن اليهود يتفقون مع المسلمين ماداموا محاربين.

٢٤- وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٢٥- وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

٢٦- وألا تجار حرمة[٤٧] إلا بإذن أهلها.

٢٧- وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

٢٨- وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

---

(٤٦) أي أن البر يحول دون إثم.

(٤٧) الحرمة جوار سبق.

٢٩- وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.

٣٠- وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه[٤٨]، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

٣١- على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

٣٢- وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة. وأن البر دون الإثم. لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

٣٣- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ[٤٩]

* * *

ولقد يصلح نص بيعة العقبة، وإقامة النقباء، ليكون إعلان قيام دولة المسلمين بالمدينة عند بعض، لكن وجود رسول الله على مبعدة أيام منها دون إعلان للدولة، وحال المسلمين بالمدينة، يجعل الرابطة دينية في انتظار مقدمه لتصنع أمورها على عينه ويتخولها بأوامره. ولا ريب قامت دولة الإسلام يوم أقام مسجد قباء، ودخل المدينة في موكبه، وسارع فأنشأ مسجدها لجماعة تتسابق إلى الطاعة ويتزايد عددها ساعة بعد ساعة. والدولة التي تقوم في بيت الله هي دولة لله سبحانه.

إدارة الدولة:

ومن المسجد انطلقت أجهزة السلطة في طريق مرسوم: رئيس دولة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤاخي بين المهاجرين والأنصار، ثم تعاهد اليهود وتشمل بسلطاتها مناطق اليهود كافة، وترد أمورهم إلى الله ورسوله في حربه وسلمه أو اشتجار يخاف فساده، عدوه عدوهم، فهذا هو السلطان يستعمل في الداخل والخارج على رقعة واسعة وأنفس راضية، مأخوذة بنظام تحمي أركانه الدولة بالحدود أو التعزيرات، أي الجزاءات، وتصحح الانحرافات عنه.

---

(٤٨) يخالطونه.

(٤٩) النص المنقول هنا وارد بترقيمه في كتاب (في النظام السياسي للدولة الإسلامية) للأستاذ الدكتور محمد سليم العوا.

وأصبح المسجد مكان تجمع العسكر، فمنه تتابع خروج سرايا الدولة في كل الأنحاء، تحمي حماها وتعلم دينها، ومنه خرجت غزواته عليه الصلاة والسلام ليكتب لها أن تنتصر.

وفي المسجد قامت إدارة مرافق الدولة ومنها: التعليم، والعدل، وقسمة الأموال، والمشورة، وتدريب القادة الفكريين للأمة، واجتماع الرسول بصحبه، وفيهم ولاته وكتابه وأمراؤه والمنفذون لأوامره وسائر عماله. وفيهم وزيراه أبو بكر وعمر.

وفي المسجد كانت لقاءاته مع الوفود وقيادة الأمة وإمامة الجماعات، على مدار الليل والنهار في مواقيت الصلاة، وجرت الحياة وفق التعاليم التي يلقيها الرسول فيه أو يتعلمها المسلمون من بيوته الملحقة بمسجده. وكأن المسلمين في صلاة دائمة أو شبه صلاة. وإنهم لفي جوار عظيم: جوار الله ورسوله.

هو ذا: مجلس الرسول الدائم للتعليم وإذا لم يكن ثمة فهناك عبادة بن الصامت وقد عهد إليه في تعليم أهل الصفة في مؤخرة المسجد.

وهو ذا: ﷺ يملي على كتابه آيات القرآن من فور نزوله – أو رسائله إلى بعيد، أو يلقي أوامره، أو يقضي بين خصمين، أو يستشير صحبه.

ويعهد إلى عمر في القضاء بقوله: "اقض عني فإني في شغل"، أو يعهد في بعض الأقضية إلى بعض ويدربهم ويشهد تصرفهم. ومن هؤلاء أبو بكر وعلي ومعاذ بن جبل وعمرو بن العاص.

وكان بفتى في حياته اثنا عشر: الخلفاء الأربعة الراشدون، وابن مسعود، وأبي، وعمار، ومعاذ، وزيد "بن ثابت"، وأبو الدرداء، وسلمان الفارسي، وأبو موسى الأشعري.

وهذا مرفق إقامة الشعائر أو المواقيت الدائمة في الإسلام يتولاه بلال وابن أم مكتوم، وأبو محذورة. وكتاب الدولة كثر. وأكثر منهم أمراء السرايا والبعوث والسفراء بالكتب. وكلهم أنضاء حروب وعبادة وزهادة.

وقد يتخصص بعضهم: فعلي كاتب المعاهدات، وقد يكتب غيره، وعبد الله بن الأرقم يجيب الملوك، والزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يكتبان الصدقات. والتوقيعات إلى الملوك يتولاها شرحبيل بن حسنة، وكتابة المصاحف يتولاها ناجية الطفاوي، ونافع بن ظريب النوفلي، وديوان الترجمة لزيد بن ثابت، وقد أمره الرسول أن يتعلم لغة اليهود ليترجم له. وتعليم النساء تخصصت فيه الشفاء أم سليمان بن أبي حثمة تعلمهن الكتابة والقراءة.

وللغنائم ديوان عليه معيقيب بن أبي فاطمة، وكعب بن عمرو بن زيد الأنصاري. وللنبي الخمس ينفق منه في مصالح الدولة وعلى أهله أما أربعة الأخماس فللغانمين.

وكان حذيفة بن اليمان كاتب سر يجمع الوظائف: فهو كاتب الجيش ولديه إحصاؤه مذ بلغ المسلمون ألفا وخمسمائة رجل، ويتولى حساب صدقات الحجاز وغيره – وكان يعرف المنافقين فينتظر عمر في خلافته أن يصلي حذيفة على ميت فيصلي عليه عمر لأن الله نهى عن الصلاة على من مات منهم.

ومن الأمانة لم يشهد حذيفة بدرا بأمر رسول الله إذ خرج وأبوه مهاجرين إلى المدينة فأدركهما مشركو مكة فأخذوا عليهما موثقا ألا يحارباهم، فأخبر النبي بذلك يوم بدر وأضاف: إن شئت قاتلنا معك. قال عليه الصلاة والسلام: "بل تفيان ونستعين الله عليهم" ففاتته بدر، وكان ﷺ في صحبه أحوج القواد يومذاك للرجلين إذ كان المهاجرون في الجيش سبعة وسبعين والأنصار مائتين وستة وثلاثين يحاربون ألفا من المشركين: لكنه آثار الوفاء على ضرورات الحرب، وبهذه المعاني كان ينتصر.

وأضيفت إلى وظيفة بلال للأذان، وظيفة إخراج المال، ورسول الله يدفعه إلى السخاء بقوله: "أنفق.. ولا تخش من ذي العرش إقلالا".

أما المهام السرية فتقوم بها "القوة الخاصة" محمد بن مسلمة أو عبد الله بن عتيك أو عمرو بن عتيق أو عمرو بن أبي أمية الضمري وأصحابهم.

وكان المحتسب المسئول عن الأسواق سعيد بن سعيد بن العاص (... بن عبد شمس).

وللإعلام رجال يتصدرهم الشعراء الثلاثة: حسان، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك.

أما خطيبه فثابت بن قيس بن شماس.

وعلى هذا الوجه انتظمت دواوين الرياسة والقيادة والتعليم والقضاء والإفتاء وسائر دواوين الدولة من دون شعارات مظهرية. والعضو – كما يقولون – ينشئ الوظيفة.

ثم أصبح للدولة خاتم من حديد ملون عليه فضة، نقشه ثلاثة أسطر، محمد سطر. ورسول سطر. والله سطر.

وارتفعت للدولة من أولى سنوات الهجرة راية من صوف أسود مكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله. ولها ألوية تحملها الجيوش.

لكن الدولة، ولها مال، ليس بها مكان لبيت المال. منذ كانت بيوت المسلمين كلها بيت المال. فرسول الله يوزعه على مستحقيه من فور مجيئه. ولقد خاف وهو في النزع الأخير أن يموت وفي بيته بضعة دنانير.

والسجلات عند سهيل بن بيضاء.

ورسول الله واضع التاريخ الهجري على وثائقه مبتدئا بيوم وصوله المدينة وكل ما صنعه عمر أنه قدم مبدأ التاريخ قليلا ليوافق المحرم أو العام.

وكان ﷺ يؤمر أميرا على العاصمة كلما بارحها لغزو أو حج أو عمرة. ويستحب حداء حسان بن ثابت والعير والخيل تسير، ويستحسن حداء عبد الله بن رواحة وإذا كان للنساء ركب فحاديهن أنجشة.

وعبد الله بن مسعود حاجبه إذا اغتسل، وهو الحافظ الكبير للقرآن، والمعلم الأول للكوفة.

وكان رسول الله يعطي أصحابه عطاء وإن لم يريدوه. قال عمر: كان يعطيني العطاء فأقول أعطه أفقر مني فقال لي (خذه فتموله فتصدق به). وليست هذه مرتبات. وإنما هي معونات لفقير أو أفقر منه، أما المرتبات فمرتب عتاب بن أسيد حين عينه واليا على مكة بعد فتحها كان درهما واحدا في اليوم.

* * *

وولي الأمر في المسلمين عقد نظامهم يروي لنا أساس البيعة له ومداها عبادة بن الصامت: (دعانا النبي ﷺ فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، ولا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا (ظاهرا) عندكم من الله فيه برهان).

وكان من أوائل همه اجتماع كلمة الأمة فقال: "من كره من أميره شيئا فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبرا مات ميتة جاهلية"، وقال: "سترون من بعدي أثرة تنكرونها" قالوا فما تأمرنا، قال: "أدوا إليهم حقهم وسلوهم حقكم".

وعلل حكمه بقوله: "سيكون عليكم أمراء يفسدون، وما يصلح الله تعالى بهم أكثر. فإن أحسنوا فلهم أجر، وإن أساءوا فعليهم الوزر".

وأمر بقتال من شق عصا الطاعة وفارق الجماعة فقال: "من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم، فاقتلوه".

ولما استؤذن في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة أجاب: "لا ما أقاموا الصلاة" وأحمد بن حنبل إمام أهل السنة هو القائل: "إذا كان الإمام صالحا فهو خير من صالحي الأمة فإن كان فسادا فصالحو الأمة خير منه" وكان يقول "لو أن لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان" فالإمام أحمد يقدر المسئولية التي قررها الحديث الشريف: "ويل للعرفاء وويل للأمراء. ليتمنين أقوام يوم القيامة أن نواصيهم كانت معلقة بالثريا يتجلجلون بين السماء والأرض وأنهم لم يلوا عملا قط".

عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع، فأوصنا قال: "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي. وإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة".

ويمثل للمجتمع ببنيان متماسك يؤكد ما في داخل البنيان من مودة ورحمة وتضامن في الشدة واستجابة فكرية وفعلية في كل لحظة تتنادى أجزاؤه، ويستعمل للتأكيد يديه وأصابعه الكريمة، فيرسم للمسلمين أروع صورة، حيث يقول: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" ويشبك بين أصابعه، ويقول: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائره بالحمى والسهر". أما الحاكم الظالم فالناس مؤدون إليه ما يؤديه هو لله وينزلون به العقاب في الحياة الدنيا من جنس عمله، والله ينزله به في نار جهنم فوق ما يصيبه في الدنيا.

إليك تذكرة يضعها صاحب للنبي وهو على فراش الموت في قلب حاكم غاشم: عاد عبيد الله بن زياد والي العراق معقل بن يسار المزني في مرضه الذي مات فيه فقال له معقل: إني محدثك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لو علمت أن لي حياة ما حدثتك به: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول "ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم عليه الجنة" فمعقل عليم بفظائع عبيد الله وأفظعها مقتل سيد الشهداء (الحسين بن علي) ومعقل على يقين بمصير عبيد الله إلى جهنم وسوف تقتله ثورة من جراء ما صنعه.

* * *

ولم تكن بوادر الخلاف العرقي خافية في أواخر حياة رسول الله، فلقد كان الأسود العنسي باليمن قد ارتد وادعى النبوة... بل كانت العصبية "المنتنة" كما وصفها في غزوة بني المصطلق – تمد أنيابها. فهذا قيس بن المطاطية يقف على حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي ثم يقول: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (يعني النبي ﷺ) فما بال هذا

(يعني غير العرب: سلمان وصهيبا وبلالا)، ما يدعوهم إلى نصره وهم ليسوا عربا من قومه؟ فقام إليه معاذ بن جبل وأخذ بتلابيبه. ثم أتى النبي فأخبره فقام ﷺ مغضبا حتى أتى المسجد ونادى (الصلاة جامعة)، وخطب الناس قائلا: "يا أيها الناس الرب واحد والأب واحد وإن الدين واحد وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم. وإنما هي اللسان. فمن تكلم العربية فهو عربي".

فقام معاذ فقال وما تأمرني بهذا المنافق يا رسول الله – قال: "دعه إلى النار" – وصدق رسول الله فكان قيس ممن ارتدوا فقتل. وقوام الجنسية أو القومية للأمة العربية هو وحدة اللغة ووحدة الدين ووحدة المصير. وفي الإسلام أسباب وثقى للوحدة تجري في الأمة مجرى الدم على مدى ألف وخمسمائة عام. واللغة العربية قد وعد الله بحفظها مع حفظ كتابه. فهي قوام قومية وصلة بالله ورسوله وبلسانها خاطب الله الناس كافة.

ويندر أن يتحد العرق في أمة إذا كانت كبيرة العدد أو الرقعة أو كانت أمة عالمية، ولا يمنع وحدة الأمة تعدد أصحاب السلطة.

obeikandi.com

جهاز الإعلام:

كان عليه السلام حفيا بجهاز الإعلام والشعر أذيع أدواته في اللسان العرب يقول لحسان بن ثابت: "إن روح القدس ما يزال يؤيدك ما نافحت عن رسول الله"، ويقول عنه: "هجاهم حسان فشفى وأشفى" ويقول له كي لا يخطئ أو يظلم: "إيت أبا بكر فهو أعلم بأنساب القوم منك" فكان المشركون يقولون والله ما غاب هذا العشر عن ابن أبي قحافة (أبي بكر)، وقد يقول له: "اهجهم وجبريل معك".

وكان عليه الصلاة والسلام يقول عن عبد الله بن رواحة: "إن أخاكم لا يقول الرفث"، ويقول له: "قل شعرا تقتضيه الساعة فأنا أنظر إليك" ويدعو له: "ثبتك الله يا ابن أبي رواحة".

وفي وقعة أحد لبس شاعره كعب بن مالك لامته (السلاح والدرع) ولبس ﷺ لامته. وأصيب كعب بأحد عشر جراحة. وكان ﷺ يقول عن شعره: "لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا".

ولما سأل النبي: يا رسول الله ماذا ترى في الشعر؟ أجابه: "إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه".

وصحح له رسول الله يوما شعره حيث يقول في شطر بيت: مجالدنا عن جذمنا كل قحمة، قال ﷺ "أيصلح مجالدنا عن ديننا؟" فقالها كعب. هكذا كان المعلم الأكبر عليه الصلاة والسلام يستأذن بسماحته المثلى كعبا في أن يصحح وجه مفاخرته. وإنما يفاخر المسلم بدينه وعمله به.

أما الإعلام ضده فحرب على الدين وجزاؤه القتل، كما فعل محمد بن مسلمة، وعبد الله بن عتيك، وعبد الله بن رواحة، وعمير بن عدي الثقفي باليهود الذين كانوا يهجون النبي ويحرضون عليه القبائل بعد أن عاهدوه.

التشريع:

الأصل قرآن وسنة ونقتصر هنا على عجالة تخص السنة. فهي ما عرف عن رسول الله ﷺ من فعل أو قول، أو إقرار لفعل غيره، أو إنكار له، مما يدل على حكم شرعي. فلا يدخل فيه ما يصنعه رسول الله باعتباره بشرا كالطعام واللباس والنوم وأمثال ذلك،لأنه جبلي، وللناس فيه أن يصنعوه أو لا يصنعوه. مثل أن يعرض عليه الضب في الطعام فلا يأكله ويسأل أحرام هو؟ فيجيب: "لا ولكن لم يكن بأرض قومي فأنا أعافه" وأكل الضب خالد بن الوليد، وأخبر بأن رسول الله لم ينه عنه.

والله يأمر الناس بطاعة رسوله، وأن يردوا الأمر إليه وإلى رسوله عند التنازع (النساء ٧٩) وقد بين الرسول وجوب اتباع سنته وهي في جملتها شارحة للقرآن ومنها تفصيل صيغة مجملة في القرآن أو تقييد عبارة مطلقة أو تخصيصها، ومثل تفصيل المجمل في القرآن كيفية أداء الصلوات والمناسك، ومثل تقييد المطلق، تحديد الوصية بالثلث، وتحديد ما يقطع من يد السارق، وعدم الجمع في الزواج بين المرأة وعمتها أو خالتها أو بنت أختها أو بنت أخيها، ومثل تخصيص العام قوله ﷺ: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث" فبذلك حرمت فاطمة الزهراء من ميراث أبيها في فدك، أو قوله: "لا يرث القاتل".

والإمام الشافعي يشير إلى أصل هذه الوجوه بقوله: (وما سن رسول الله فيما ليس فيه حكم فبحكم الله سنه. وكذلك أخبرنا الله في قوله {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله}، وإن المقصود بالحكمة في قوله تعالى {ويعلمهم الكتاب والحكمة} سنة رسول الله).

ويروي لنا ابن عبد البر أن عبد الله بن مسعود قال: (لعن الله الواشمات والمتوشمات للحسن المغيرات لخلق الله)، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد فقالت له: يا عبد الرحمن بلغني أنك لعنت كذا وكذا قال: وما لي لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ ون هو في كتاب الله! قالت: إني أقرأ ما بين اللوحين (تقصد المصحف) فما وجدته. قال: إن كنت قرأته لقد وجدته. أما قرأت {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} قالت بلى قال: فإنه نهى عنه رسول الله ﷺ قالت: أظن أن أهلك يفعلون بعض ذلك قال: فاذهبي وانظري قال: فدخلت فلم تر شيئا. فقال عبد الله لو كانت كذلك لم نجامعها.

ومن السنن أوامر ونواه ومندوبات ومكروهات، ومباحات. وربما اقتضى التوضيح التمثيل للمندوب والمكروه بقوله ﷺ "غسل الجمعة واجب على كل محتلم" وتصح الجعة لمن اكتفى بالوضوء فالغسل مندوب، ويقال ذلك قوله: "لا تصلوا في مبارك الإبل" وتكون الصلاة صحيحة والكراهة خاصة بمكان أدائها.

وأحاديث الرسول لا يمكن استقصاؤها، وإن جمع منها مسند ابن حنبل نحو ثلاثين ألفا اختارها من مئات آلاف وتداولت الصحاح أعدادا أقل، وتحوي كتب أخرى أحاديث أخرى.

وسنن أبي داود بالغة ثمانمائة وأربعة آلاف وهو يقول: يكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث (إنما الأعمال بالنيات) و (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) و (لا يكون المرء مؤمنا حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه)، و (الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات) فهذه قواعد أمهات.

وإذا جانب المرء الشبهات سلم قلبه، فمشى الخطوة الكبرى ليقارب قوله ﷺ "لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به البأس".

جاء رسول الله رجل يسأله عن البر فأجابه: "البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في صدرك وكرهته أن يطلع عليه الناس. استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك".

وتختص حجية السنة بصفتها التطبيقية واردة على ألسن الصحابة من شهودها، نقلوها إلى التابعين وكانوا آلافا. وأنها شملت مواضيع في حياة الفرد والأسرة والدولة، والحرب والسلم والخلق والعلم، في أمور من الحياة الواقعة ليس لها حدود، وأنها شغلت نحو ربع قرن من الزمان، وطبقت في كل مكان بلغه صحابي، فجلى التطبيق معناها للأمة.

ولذلك قال علي بن أبي طالب لابن عباس حين بعثه لمناقشة الخوارج: (لا تخاصمهم بالقرآن لأنه حمال وجوه. ولكن حاججهم بالقرآن والسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصا) ولما عدد لهم ابن عباس سنن الرسول لم يحيروا جوابا.

ولم تأل الأمة جهدا في جمع السنن فحاول بعض جمع بعض منها في حياة الرسول، وآخرون من الصحابة والتابعين لم يدخروا وسعهم بعده، وجاب المحدثون القارات بحثا عن الحديث وتعاقبت تفاسيرها. وما يزال دينا على الأمة – كما قال ابن خلدون في القرن التاسع عن شيوخه – أن تسبر أغوارها لأنها في واقع أمرها هي القرآن في "حالة عمل" أداه رسول الله وشاركت فيه الأمة برؤيته أو سماعه.

وبذل الفقهاء قصارى وسعهم للتحقيق في صحة الأحاديث واستيقنوا صحة المتون واتصاف الرواة عن الصحابة بتمام الضبط والعدالة. ورسول الله يحذر النقلة من فساد الحفظ والفهم أو النقل، وينضر وجه الحفظة الفاهم حيث يقول: "نضر الله عبدا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها كما سمعها، فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه" وبهذا الحرص على النقل سلمت الرواية عن رسول الله فبلغت أعلى درجات الضبط والعدالة.

فثمة (المتواتر): وهو ما ترويه جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب عن جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب عن مثلها يؤمن تواطؤها، فهذه قطعية الثبوت بكفر جاحدها.

وثمة (المشهور) وهو ما يرويه من الصحابة عدد لا يبلغ حد التواتر، ثم يتواتر عنهم فهذا يجب العمل به. وثمة (حديث الآحاد) عن "العدل" "الضابط" عن مثله صعودا إلى رسول الله ﷺ وهذا

أيضا يجب العمل به إذا توافرت شروطه وما أكثرها[٥٠] في الرواة ومعرفة حياتهم أدق معرفة وأشملها وأكملها، وكذلك شروط في المتن المروي. وجملتها رد الحديث إذا باين المعقول أو خالف المنقول أو ناقض الأصول.

وفي الراوي شروط تحمل وشروط أداء تجتمع له ولمن نقل عنه. والروايات درجات. والرواة طبقات. ولهذا درس المسلمون نحوا من خمسمائة ألف رجل مما أذهل العلماء الغربيين.

كان عليه الصلاة والسلام يسرا كله يشير إلى رسالته فيقول: "بعثت بالحنيفية السمحة" والتيسير في القرآن والسنة من الكثرة بحيث صار أصلا مقطوعا به. وجعل رسول الله الإباحة هي الأصل بقوله: "ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته"، ثم تلا: {وما كان ربك نسيا} مريم ٦٤.

وبأصلي اليسر والإباحة جمل الإسلام الحياة، وشجع المسلمون ليكسبوا رضوان الله بالزرق الحلال مع النزاهة والهناءة والجمال. وهو ﷺ يقول: "إن الله جميل يحب الجمال" ويقول: "أربع من السعادة – المرأة الصالحة – والمسكن الواسع – والجار الصالح – والمركب الهنئ" ويدعو بذلك لكل مسلم.

القضاء:

القضاء عنوان الشريعة وميزان السلطة، فلا دولة – حقا – بغير قضاء. يقول عمر بن عبد العزيز "الوالي ركن، والقاضي ركن، وصاحب الخراج ركن، والركن الرابع أنا".

والعدل في الإسلام متصل بالعقيدة، إذ هو صفة من صفات الله ومن ذلك يقولون: القضاء تلو النبوة.

وأجمع آية في القرآن للأحكام قوله تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي}.

---

(٥٠) يراجع مالك بن أنس ص١٩٠،طبعة دار المعارف، وكتاب الإمام الشافعي ص٣٢٣، طبعة دار المعارف، وكتاب الإمام أحمد بن حنبل طبعة دار المعارف ص١٨٨ وهي كتب للمؤلف فيها بيانات لشروط الصحة والحسن في الحديث.

وبين الله تعالى طريق الفصل في الخصومات فقال: {فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر} النساء ٥٩، فالعدل قضاء بكتاب الله وسنة رسوله، وهو أداة السلام والمودة في الأمة. يقول علي في عهده لواليه: "إن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد بظهوره في مودة الرعية".

ولما فتح هولاكو بغداد استفتى العلماء: "أيهما أفضل السلطان الكافر العادل أو السلطان المسلم الجائر"؟

فجمعوا العلماء بالمدرسة الناصرية، وكان علي بن طاوس حاضرا وهو المقدم المحترم. فتناول الفتيا ووضع خطه عليها بالتفضيل للكافر العادل على المسلم الجائر، ووضع العلماء خطوطهم على ذلك.

وكان طبيعيا أن يعد رسول الله الرجال للقضاء وأن يبين الأساسي من بين إجراءاته ويترك الباقي للتطبيقات. وقد وضع عمر وعلي رضي الله عنهما في عهدين شهيرين – أولهما إلى أبي موسى الأشعري، والثاني إلى الأشتر النخعي – من القواعد ما فاق به القضاء الإسلامي نظم القضاء قاطبة حتى الآن، وأضاف عثمان في خلافته إلى جهاز القضاء جهاز الوكلاء[٥١] (المحامين)،

---

(٥١) روى الشعبي: أول من جرى جرا (وكيلا) من الصحابة علي بن أبي طالب، وكل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فقيل له لماذا وكلت عبد الله وأنت سيد الناطقين. فقال إن للخصومات قحما (القحمة ما يحمل المرء على ما يكره) – وكانت الخصومة في سد بين ضيعة له وأخرى لطلحة بن عبيد الله. علي يحب أن يثبت وطلحة يحب أن يزل. فتنازعا إلى عثمان وهو خليفة، وركبوا في الغد ومعهم معاوية إلى موضع السد. قال معاوية لو كان السد منكرا لأزله عمر. حتى إذا وقف الركب قال عثمان للحاضرين أخبرنا أكان هذا أيام عمر؟ قالوا نعم قال: فدعوه كما كان.

وخف عبد الله إلى علي بالخبر. وضحك علي وقال لعبد الله: أتدري لماذا أعانك معاوية؟ أعانك للمنافية (نسبة لعبد مناف جد علي ومعاوية)، ثم قال علي قم الآن إلى طلحة فقل له إن السد لك. فاصنع ما شئت. فأتاه فأخبر، فسر.

ثم قام معه طلحة إلى علي فقال له قد قبلت وجئت شاكرا. ولي حاجة لا بد من قضائها.

قال علي: سل ولا بد من قضائها.

قال طلحة: أحب أن تقبل الضيعة بما فيها من الغلمان والدواب والآلة – وتعانقا.

وخرج طلحة وتفرقوا.

وحرص الولاة على تقديس العدالة: فأمير المؤمنين يمثل بنفسه إذا خاصم أو خوصم، ويجلس خصمه إذا جلس. ويقضى ضده لذمي لنقص في البينة فيسلم الذمي من آية العدل.

ولا تسمع قضية أمير المؤمنين في جلسة خاصة بل مع الجمهور لتتم العلانية، ويبدأ القاضي بقضايا العامة. ويحلف عمر اليمين الحاسمة ولا يحلف عثمان، فيدفع لخصمه ما زعمه ورعا من عثمان. وعلي يحاسب عمر إذ ناداه – وعمر خليفة – بكنيته ولم يناد خصمه بكنيته، ويحلف الخليفة المأمون اليمين ومع ذلك يدفع لخصمه ما استحلفه عليه!

والنبي يحث القضاة على الورع بقوله: "يؤتى بالقاضي يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين قط".

ويقول: "القضاة ثلاثة اثنان في النار واحد في الجنة. رجل عرف الحق فقضى به، ورجل قضى بين الناس بالجهل، فهو في النار، ورجل عرف الحق فجار، فهو في النار".

ويقول ليجري القضاء على الظاهر: "إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم يكون ألحن (أفطن) بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بشئ من حق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها إسطاما يوم القيامة" فبكى الرجلان، وقال كل منهما: حقي لأخي فقال: "أما إذ قلتما فاذهبا فاقتسما، ثم توخيا الحق فيما بينكما، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه".

واختصم إليه رجلان من كندة وحضرموت: قال الكندي: أرضي ورثتها من أبي، فقال ﷺ للحضرمي ألك بينة؟ قال لا، ولكن يحلف ما يعلم أنها أرضي غصبها أبوه، فتهيأ الكندي لليمين، قال رسول الله: "لا يقطع رجل دارا بيمين إلا لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان" فتاركها الكندي.

واختصم اثنان في أرض وتكافأت بينتهما فقسمها بينهما.

قال عبد الله فوالله ما أدري أيهما أكرم في ذلك المجلس! والتاريخ يعرف إمامة علي في الزهد والتصوف وأنه ما كان يملك شيئا إلا وعه في الفقراء ولو جاع!

ولعبد الله مكانه بين أجواد العرب: آتاه يزيد بن معاوية ذات يوم ألفي ألف درهم. وعجب الحاضرون قالوا: تعطي رجلا ألفي ألف! فزادها ضعفا. وقال: إنها صائرة إلى أهل المدينة. ويزيد يعلم أخبارهم، فقد كانوا يستدينون في انتظار عطاء عبد الله.

وقد يعزر الخصم إذا أساء... حكم ﷺ في خصومة للزبير بن العوام بحقه في ري غراسه، ثم يدع بقية الماء لخصمه، قال الخصم للرسول: أن كان ابن عمتك؟ وعلم رسول الله الناس أن يجلوا مجلس القضاء فاكتفى عليه الصلاة والسلام في تعزيره بأن جعل الزبير يستوفي حقه.

وشكا إليه أنصاري ما يصيبه من الأذى بسبب دخول سمرة بن جندب بستانه ليتعهد نخلات له فقال له ﷺ... ثم قال له "اقلعه".. ثم قال: "هبه ولك مثلها في الجنة" وكان سمرة يحسب أقوال الرسول مجرد نصيحة فيأبى. فقال له: "أنت مضار" وقال للأنصاري: "اذهب فاقطع نخله".

وكان يدرب أصحابه كعلي ومعاذ وهما شابان وعمرو بن العاص وهو حديث عهد بالإسلام. وقلد ﷺ عتاب بن أسيد ولاية مكة وقضاءها بعد فتحها، وجعل رزقه في اليوم درهما – وكان عتاب يقول: لا أشبع الله بطنا جاع على درهم كل يوم.

ولما ولي الخلافة أبو بكر عمر القضاء فظل عاما أو أكثر لم ترد إليه قضية.

* * *

بعث رسول الله عليا قاضيا في اليمن، وكان يعجبه قضاؤه، وأجمع الصحابة – وفيهم عمر – أن أقضاهم علي(٥٢).

---

(٥٢) اختصم إليه رجلان جلسا يتغديان لأحدهما خمسة أرغفة وللثاني ثلاثة فمر بهما ثالث، قالا له هلم اجلس. واستوفوا الأرغفة وقام الثالث وطرح لصاحبيه ثمانية دراهم فقال صاحب الخمسة لي خمسة وقال الآخر لا أرضى إلا مناصفة. وارتفعا إلى علي وهو أمير المؤمنين فقال لصاحب الأرغفة الثلاثة: قد عرض عليك صاحبك ما عرض، وخبز، أكثر فارض بالثلاثة. وأجاب الرجل لا والله لا رضيت منه إلا بمر الحق.

قال علي: ليس لك في مر الحق إلا درهم وله سبعة.

قال الرجل: سبحان الله. هو يعرض علي ثلاثة فلم أرض وأشرت علي بأخذها فلم أرض.

قال علي: عرض عليك الثلاثة صلحا.

قال الرجل: عرفني بمر الحق.

قال علي: أليس الثمانية أرغفة أربعة وعشرين ثلثا، أكلتموها وأنتم ثلاثة أنفس، ولا يعلم الأكثر منكم أكلا ولا الأقل، فتحملون في أكلكم على السواء؟

قال الرجل: بلى.

قال علي: فأكلت أنت ثمانية أثلاث وإنما لك تسعة أثلاث. وأكل صاحبك ثمانية أثلاث وله خمسة عشر ثلثا.أكل منها ثمانية ويبقى له سبعة. وأكل لك واحدا من تسعة فلك واحد بواحدك ولهسبعة.

رفع علي دعوى وطلب القاضي شريح منه البينة فأحضر ابنه الحسن وغلامه قنبرا.

قال القاضي زدني شهودا. ولم يعلن أسباب قراره أدبا في حق أمير المؤمنين.

قال أمير المؤمنين أي شاهدي رفضت؟

قال القاضي: الحسن (لأنه ابن المدعي) وطابت نفسه علي.

وضرب المسلمون عمل هذا القاضي مثلا على الدقة في الإثبات والمساواة أمام القضاء، فالحسن والحسين كما يقول جدهما ﷺ سيدا شباب أهل الجنة(٥٣).

ولما ولى رسول الله معاذا سأله "بم تحكم" قال: بكتاب الله. قال "فإن لم تجد قال: بسنة رسول الله، قال "فإن لم تجد" قال: أجتهد رأيي، فقال ﷺ "الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسوله" وهكذا سن لأمته الاجتهاد مثلما أمر الله به.

وذات يوم قالت هند بنت عتبة: يا رسول الله أبو سفيان (زوجها) شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني وأولادي إلا ما أخذته من ماله بغير علمه، فهل علي في ذلك من جناح؟ قال ﷺ "خذي من ماله مايكفيك وولدك بالمعروف".

وبعض يرى في الشكوى قضية قضى فيها نبي الله بعلمه، وبعض يراها طلب فقه أو أمر إمام، وربما رجح القول الأخير، غيبة الخصم، وعدم سماع بينة أو دفاع أو تحقيق، وأن أمر النبي صادر في نطاق قوله عليه الصلاة والسلام.

(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم راع في

---

(٥٣) وأودع قرشيان مائة دينار لدى قرشية على ألا تدفعها إلى أحدهما دون الآخر، ثم جاءها أحدهما طالبا المال فأخبرته أنها دفعته لصاحبه، فشكى إلى علي، فأحس أنهما مكرا بالمرأة، فقال للرجل: ألستما قلتما لها لا تدفعي لواحد دون صاحبه فاذهب فجئ بصاحبك. فذهب ولم يرجع.

راجع باب القضاء في كتاب (القرآن والمنهج العلمي المعاصر) للمؤلف طبعة دار المعارف ص٢٦٣ إلى ٣٢٢، حيث شرح عهدا عمر لأبي موسى، وعلي إلى الأشتر النخعي.

مال سيده وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه وهو مسئول عن رعيته. وكلكم راع ومسئول عن رعيته) (٥٤).

ولما قيد ما تأخذه بكفايتها وولدهما "بالمعروف"، كان يستكمل لها نفقتها إذا نقصت عن المعروف وهي "راعية في مال زوجها" مسئولة عنه.

الحدود والقصاص:

ومر عليه الصلاة والسلام بيهودي فوجده محمما مجلودا (حممه سخم وجهه بالفحم)، فسألهم: "أهكذا تجدون حد الزاني عندكم"؟ قالوا نعم، فدعا رجلا من علمائهم فقال له: "أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى. أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟" قال لا ولولا أنك تنشدني بهذا لم أخبرك. فحده الرجم. ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد. قلنا تعالوا فلنجتمع على شئ نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد.

قال ﷺ (اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه).

وفي رواية سأل اليهود: "كيف تصنعون بمن زنى منكم"؟ قالوا نحممهما ونضربهما، فقال: لا تجدون في التوراة الرجم؟ "قالوا لا. قال عليه الصلاة والسلام: "كذبتم فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين"، فوضع مدراسها الذي يدرسها كفه على آية الرجم يقرأ ما وراءها فلا يقرؤها فنزع يده عن آية الرجم وقال: "ما هذه" قالوا هي آية الرجم فأمر بهما فرجما.

وكان ﷺ يقول: "حد يعمل به خير للناس من أن يمطروا أربعين صباحا" فتوقيع الحد يمنع جرائم بلا عدد.

---

(٥٤) من تطبيقات هذا الحديث، صنيع عمر بن الخطاب وهو خليفة – إمام – إذ كان في سفر فسمع صوت راعي غنم فحول الركاب إليه، فلمادنا منه صاح: يا راعي الغنم، وأجابه الراعي وقال له عمر: إني قد مررت بمكان أخصب من مكانك وإن كل راع مسئول عن رعيته، ثم عدل صدور الركاب إلى طريقه بعد أن أرشد الراعي. وعجب الركب من فعل عمر كيف يغير طريق الركب المسافر لإرشاد راع في جبل. قال لهم عمر:"إن نصيحتي لكم وأنتم جلوس عندي كنصحي لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين، وذلك لما طوقني الله من أمورهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من مات غاشا لرعيته لم يرح رح الجنة".

سرقت "فاطمة" بنت عبد الأسد، وهي مخزومية، فوسطوا للنبي أسامة بن زيد، فغضب رسول الله وقال: "كل شئ ولا ترك حد من حدود الله لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها" وقطعت يد المخزومية وقومها من علية قريش. وصلح أمرها بعد إيقاع الحد. فكانت تفد على رسول الله وتقضي لها حوائجها أم المؤمنين عائشة.

ومن الرحمة والنصفة كان يقول: "اردءوا الحدود بالشبهات. فإن الإمام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة".

وسمع ﷺ بعض الحاضرين يقول لمن أقيم عليه حد شرب الخمر: أخزاك الله فقال: "لا تعينوا عليه الشيطان" فهذا الدعاء عليه خارج عن الحد وتمكين للشيطان من نفسه وهوان لذاته.

وكما نهى عن الشفاعة في الحد بعد تبليغ السلطان بالجريمة، كان يعلم المسلمين بحديثه: "إن المعصية إن خفيت لم تضر إلا صاحبها، ولكن إذا ظهرت ولم تنكر أضرت العامة" وبحديثه الآخر: "من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فهو في ستر الله، ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد".

ولما أحس بدنو أجله خرج إلى الناس فصعد المنبر فخطب وكان مما قاله: "أيها الناس من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه. ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه. ومن أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه. ولا يخش الشحناء من قبلي فإنها ليست من شأني. ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقا إن كان له أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس".

وفي القصاص يستحب رسول الله العفو، فالصلح أبقى للجماعة يقول: "ما زاد عبد بعفوه إلا عزا".

جاءت الربيع بنت النضر عمة أنس بن مالك وقد شكتها جارية كسرت ثنية لها (سنا) قال رسول الله: "يا أنس كتاب الله القصاص". فأقبلوا على الجارية جميعا يتوسلون حتى عفت.

وإنما شرعت الحدود والقصاص "زواجر" للناس حتى لا يرتكبوا إثما في أمور يعبر الفقهاء عنها بأنها (الضرورات الخمسٍ) وهي: حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل، وهي أسس لحماية الحياة، والاعتداء عليها إثم يثير الأمة كافة، وفي العقوبة عليها تطييب لنفس المجني عليه وتقوية لقلوب المجتمع الذي شرعت الحدود لحمايته. والقذف رمي بالزنى وافتراء على الأنسال والأنساب والخمر مهلكة للفرد وللجماعة والبغي نقض لوحدتها والمحاربة ثورة عليها والردة حرب على الإسلام.

والعالم الآن يجتاحه وباءان هما (١) إدمان المخدرات (٢) وانعدام المناعة في خلايا الجسم بفيروس (إيدز). وكلاهما أثر فوري لرذائل الحضارة الغربية.

١- أما الإدمان فهو نتيجة لإباحة تعاطي المخدرات – وكل مسكر خمر، وقد عجزت المستشفيات التي أقيمت في بقاع العالم الغربي عن مقاومة فواجعها. ولا غرابة إذا كان فقه مذهب الإمام مالك لا يعذر من لم يعلم بحرمتها أو بعقوبتها لأنها (أم الخبائث) ومن المخدرات أو من أجلها تقع جرائم القتل والسرقة والزنى وغيرها من الموبقات والمؤامرات التي تختص بها جماعات المدمنين ونسبتها في الأمم الغربية في زيادة متوالية تتلف النفس والعقل وتهدر المال وتقضي على قوة العمل.

٢- وأما انعدام المناعة فهو من تأثر خلايا الجسم بالزنى والشذوذ الجنسي اللذين تفاقما حتى أضحيا يهددان العالم بفناء الأمم التي تبيحهما بعد جيل أو جيلين إن لم يكتشف العالم له علاجا أو وقاية في سنوات أو يتدارك نفسه بالتزام شريعة الله ويحرم ما حرمه، ويتبع نظام الحدود التي شرعها الخالق العليم بما يصلح خلقه. وعندما يصلح أمر هذا العالم بتوقيع الحد مرة أو مرات، تزدجر فتشفى من أدوائها.

ولله الحجة البالغة.

التوبة:

التوبة تحسر أو ندم يقع موقع التنصل من الذنب: بالتحسر على مواقعته، والعزم المؤكد على ترك مواقعته إن أمكنت معاودته.

فالشارع جل ثناؤه "يدعو" إلى توبة إذ يقول {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} طه ٨٢ والرسول ﷺ يحبب المعنى الإلهي.. إلى العقول بالقصص البليغ:

"كان فيمن مضى رجل قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فقال له إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة؟ فقال الراهب لا. فقتله الرجل. فكمل به مائة. ثم سأل عن أعلم الأرض فدل على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال نعم. ومن يحول دون التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى أتى نصف الطريق وأتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة إنه جاء تائبا مقبولا يقبله الله. وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له. فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد. فقبضته ملائكة الرحمة".

وجئ برسول الله بامرأة ورجل. كانت في طريقها إلى المسجد في عماية الصبح فوقع عليها رجل فاستغاثت فأغاثها مغيث وفر المعتدي فمر بها ذوو عدد فاقتادوهما إلى رسول الله وقالوا إنهم أدركوه يشتد. فقال الرجل إنما أعنتها على المعتدي فأدركني هؤلاء. وأصرت على أنه هو الذي وقع عليها. قال عليه الصلاة والسلام: "انطلقوا فارجموه" فجاء رجل من الناس يقول لا ترجموه وارجموني فأنا الذي فعلت بها الفعل واعترف. فقال عليه السلام له: (أما أنت فقد غفر الله لك)، وقال لمن أغاثها قولا حسنا.

قال عمر: ارجم الذي اعترف بالزنى.

قال "لا لأنه تاب إلى الله".

وأي توبة أعظم من أن يجئ ليقتل في مقام ليس عليه فيه دليل(٥٥).

واستأذنت أبا هريرة امرأة فدخلت عليه قالت: إني جئت أسألك هل لي من توبة؟ إني زنيت، فولدت، فقتلت الولد!! قال لا والله ولا نعمت عين ولا كرامة.

قال ثم صليت مع رسول الله الصبح. ولما خرج من كان معي تخلفت قال: "ألك حاجة" وقصصت عليه ما قالت وما قلت فقال ﷺ "بئس ما قلت": أما كنت تقرأ هذه الآية {إلا من تاب وآمن وعمل صالحا} قال أبو هريرة فلم أترك حصنا من حصون اليهود ولا دارا إلا وقفت عليها وقلت إن تكن فيكم المرأة التي جاءت أبا هريرة فلتأتنا.

فلما صليت عند النبي ﷺ عشاء فإذا هي عند بابي. فقلت أبشري فإني دخلت على النبي فذكرت ما قلت لي وقلت لك فقال: "بئس ما قلت أما كنت قرأت هذه الآية" فقرأتها عليها، فخرت ساجدة. فقالت الحمد لله الذي جعل لي مخرجا وتوبة مما عملت. وأعتقت جارية وابنها لوجه الله.

وجاء النبي رجل فقال يا رسول الله أصبت حدا فأقمه علي. فأعرض عنه. ثم قال الرجل: يا رسول الله إني أصبت حدا فأقمه علي. فأعرض عنه. ثم قال: يا رسول الله إني أصبت حدا فأقمه علي وأعرض عنه. وأقيمت الصلاة فلما سلم رسول الله قال للرجل "هل توضأت حين أقبلت؟" قال نعم، قال ﷺ "هل صليت معنا؟" قال نعم، قال ﷺ "اذهب فإن الله قد عفا عنك".

وفي لفظ (إن الله قد غفر ذنبك أو حدك).

---

(٥٥) ويمضي نيف ورع قرن ويجد العسس رجلا يتشحط في دمه في خربة وإلى جواره آخر بيده سكين ملطخة بالدماء فيسوقونه إلى أمير المؤمنين علي وهو معترف بالقتل فأمر به أن يقتل. فلما ذهبوا به ليقتلوه جاء رجل يقول ردوه فانا الذي قتلت.

قال علي للأول: لم اعترفت؟ قال ضبطني العسس في حالتي هذه فاعترفت وأنا قصاب ذبحت بقرة وسلختها وأخذني العسس وقال الناس هذا قاتل.. فأقررت بما لم أفعل، وسأل القاتل فأجاب إنه قتل القتيل طمعا في ماله وأضاف: ولما رأيت هذا الرجل سيقتل علمت أني سأبوء بدمه أيضا فاعترفت بالحق.

وسأل علي ابنه الحسن فقال: "إن كان قد قتل نفسا فقد أحيا نفسا والله تعالى يقول: {ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا}، فخلى أمير المؤمنين عن الرجلين ودفع الدية من بيت المال.

الإثبات:

ونظام الإثبات مستمد من القرآن وعمل رسول الله وصحبه، وهو قائم على البينة وآية الدين في سورة البقرة ٢٨٢ {يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه} تأمر بكتابة الدين. وجمهور الفقهاء على أن الكتابة مندوبة لما صاحب الأمر من قرينة تشير إلى الندب.

والشارع لا يرد دليلا مشروعا. وللقاضي أن يستكمله ما أمكنه،وهو يستبعد الشكليات والطقوس التي سيطرت على الرومان في شرائعهم. وبقيت آثارها حتى العصور الحديثة في أوروبة.

ومن البينة شهادة العدول، ومن الشهادات شهادة الاثنين، وشهادة الشاهد ويمين المدعي، وشهادة الرجل والمرأتين، ويمين النكول، واليمين المردودة، والمرأة فيما يتلعق بالنساء، ومنها القرائن. ووسائل الإثبات، وهي بنت عصرها، قابلة للتطور ما دامت مشروعة تتغيا بلوغ العدالة.

ونظام القضاء يتغيا إحلال السلام بين المتخاصمين وفتح باب التراضي فهو ﷺ يقول: "الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالا أو أحل حراما، والمسلمون عند شروطهم إلا شرطا حرم حلالا أو أحل حراما".. وهو يمنع القاضي من القضاء حتى يكون في كمال توازنه فيقول: "لا يحكم القاضي بين اثنين إلا وهو شبعان ريان" وينبه على المساواة بين الخصوم فيقول: "لا تضيفوا أحد الخصمين إلا ومعه خصمه".

المساواة:

المساواة والعدل صنوان: فالعدل الإسلامي ديني يقضي بالمساواة كما أرادها الله، أما القوانين الحديثة فتقضي بالمساواة كما يريدها واضعو القوانين وفق حاجاتهم.

يقول الله تعالى {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم} فالناس يتساوون في دين يستوي فيه البشر، لكونهم بشرا، والرسول يقول: "يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد".

ولما أعطى الرسول القود من نفسه حين شكا إليه جندي دفعه بعصاه ليستوي في الصف، فقال إنه آذاه، كان الرسول يعلم المسلمين أن الجندي والقائد – وإن كان رسول الله – سيان.

ولقد طالما أهمته ﷺ المساواة بين المسلمين أجمعين، فهو القائل: "ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى" و "المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم. وهم يد على سواهم" فالمسلمون متساوون ومتكافلون.

وقال "تجد المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى".

قال له رجل: ما شاء الله وشئت فقال: "قل ما شاء الله ولا تجعلني لله ندا" ولقيه رجل فأصابته رعدة فقال له: "هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في مكة".

بل هو يسوي بين الأجيال في فرص الجنة بقوله: "لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعمله في طاعته".

ويسوي بين البنين في الأسرة. جاءه بشير بن سعد ومعه ابنه النعمان يشهده على عطية أعطاها النعمان. قال ﷺ هل أعطيت سائر ولدك مثله؟ قال لا. قال: "أشهد على هذا غيري فإني لا أشهد على جور" ثم قال: "أيها الناس اعدلوا بين أبنائكم".

ويسوي بين السابقين الصالحين واللاحقين الصالحين فيقول: "إن في آخر أمتي قوما يعطون من الأجر مالا ولهم ينكرون المنكر ويقاتلون أهل الفتن". ولقد تغدى معه أبو عبيدة بن الجراح – أمين الأمة – فسأله: يا رسول الله.. هل أحد خير منا. أسلمنا معك وجاهدنا معك؟ قال "نعم قوم يجيئون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني".

وسوى الله في كتابه العزيز الرجل والمرأة فقال {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}.

والرسول يبايع الرجال بصيغة بيعة النساء بعد تحويل الضمائر إلى التذكير.

أما الأحكام التي تفترق فيها المرأة عن الرجل فمناط الاختلاف فيها اختلاف الطبيعة كالعفو عن قضاء الحائض للصلاة التي تفوتها عند الحيض.

وبالمساواة الشاملة للبشر والعدل الواجب بينهم تحققت عالمية الإسلام، فاستوعب العالم من السنوات الأولى من التاريخ الهجري ثم مضت جيوش المسلمين في طريقها نحو الروم وفارس والشام ومصر ليظهر المسلمون على الفرس والروم بعد أعوام وينضم المصريون للفاتحين ويسلم الآخرون.

تحرير الرقيق:

وتحرير الرقيق أقرب، في واقع أمره، إلى تحريم الرقيق، "والتحرير" تعبير قرآني عظيم. فالقرآن يأمر بتحرير الرقاب للكثير من الأسباب من قبل تحرير العبيد في العالم الغرب بنيف وثلاثة عشر قرنا، وفي التوراة استرقاق الدين إذا لم يقدم ما يفي بدينه والرومان يسترقون الناس منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وكان الناس يسترقون السراق ويبيعون أبناءهم حتى جاء الإسلام ففتح الأبواب واسعة لإلغاء الرقيق.

والفقه الإسلامي يضع المبدأ الشرعي في تحرير الرقيق في مقولة قوية، هي أن (الشارع متشوف للحرية)، والإسلام يأمر به لكثير جدا من الأسباب:

١- اعتبر القرآن الرق عقبة وفكها اقتحاما للعقبة بين المرء وبين الجنة (البلد من ١١ إلى ١٣).

٢- وأوجب المساعدة على التحرير في سورة النور ٣٣ {والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم} فهو يأمر السيد بأن يكاتب الرقيق إذا تقدم بثمن يدفعه. وليس اشتراط العلم بالخير فيهم محلا لتقدير السيد، وإنما هو شرط للوجوب عليه ما دام الخير متحققا في المكاتب. وقد شفعه الله بحق آخر للرقيق هو أن يؤتيه السيد من ماله ليعينه على استرداد حريته.

٣- ونص رسول الله على جدارة النفيس من الرقاب بالإعتاق فقال: "أفضل الرقاب أغلاها ثمنا وأنفسها عند أهلها".

وخص الإماء وتزويجهن بحديثه: "ورجل له أمة فعلمها وأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها"، فالتعليم والتأديب مسئولية الراعي عن الرعية، والعتق فضل والزواج كماله، وللرجل على كل ذلك أجر.

وسن رسول الله العون على التحرير، بقوله وبعمله. قال سلمان الفارسي: كاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالحفر والغرس وأربعين أوقية. فقال ﷺ "أعينوا أخاكم".. وخرج معي. فجعلنا نقرب الوادي (أفراخ النخل الصغيرة) ويضعه بيده حتى فرغنا.

وتكاثر تحرير الرقاب في الكفارات والقربات:

٥- أمر الله بالتحرير كفارة للقتل الخطأ {ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة} النساء ٩٢، فقاتل النفس خطأ يحي نفسا أخرى. والحرية حياة.

٦- وأمر الله بالتحرير كفارة في الظهار {والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا} المجادلة ٣.

٧- وشرعه الرسول إذا واقع زوج زوجته في صيام رمضان.

٨- وأمر الله بالتحرير كفارة لليمين {فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة} المائدة ٨٩.

٩- وأوصى سبحانه وتعالى بالإماء ليتزوج السيد منهن {ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم} النساء ٢٥.

١٠- وقال تعالى في سورة النساء ٣ {فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم} وملك اليمين يعتقها أن تلد.

١١- ونص القرآن على إحسان معاملة الأسير حتى يمن عليه بالحرية، والعالم كله يعامله معاملة الرقيق.

١٢- ومن ناحية أخرى لا تجد في القرآن نصا على استرقاق أحد.

١٣- وأمر الرسول بإكرام الأسرى مع إطعامهم، فكان الصحابة يؤثرون الأسرى على أنفسهم.

١٤- وأمر عليه الصلاة والسلام من كان لديه رقق أن (لا يكلفه من العمل ما يغلبه. فإن كلفه فليعنه).

١٥- ونهى عن (أن يقول الرجل عبدي أو أمتي وليقل فتاي وفتاتي) بل نهى الرقيق ذاته عن أن يقول (سيدي وربي وليقل مولاي).

١٦- وصنعت اللغة العربية ما يصنعه لسان القرآن فهي تطلق المولى على السيد والعبد وكل أولئك تكريم أو مساواة بالفعل وبالقول وبالقرآن وباللغة.

١٧- ويروى عن أبي ذر أنه وجدت على غلامه حلة فقال له قائل: ما هذا؟ قال أبو ذر (تعال أحدثك. سابببت عبدا لي فعيرته بأمه فشكاني إلى رسول الله فقال ﷺ "أعيرته بأمه يا أبا ذر" قلت نعم. فقال: "إنك امرؤ فيك جاهلية: عبيدكم خولكم (يتخول الأمر يصلحه) إنما هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم. فمن جعل أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق فإن كلفه فليعنه".

١٨- ومن الموالي أصحاب درجات: كعمار وبلال وسلمان وصهيب. وأي كرامة ككرامة زيد بن حارثة يرد اسمه وحده في القرآن وقد أعتقه النبي بمجرد أن تملكه وقدمه بين الأمراء في جيش مؤتة وزوجه حاضنته أم أيمن، ثم زينب بنت عمته ﷺ. وكان أعظم قواد سراياه انتصارات.

١٩- وكان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين وفيهم عمر قبل أن يصل رسول الله إلى المدينة. وقال عمر – وهو طعين – لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا ما جعلتها شورى – ولعله أراد أنه كان يأخذ برأيه ولا يترك الخلافة للشورى – وكان كافور ملكا وهو مولى، وأعظم منه الموالي الذين تولوا الفتيا وأبناء الصحابة متوافرون.

ولما صلحت حال المسلمين فلم يجد عامل عمر بن عبد العزيز على أفريقية مستحقين للصدقة أمره عمر أن يشتري رقابا ويعتقها.

مجتمع الحرية:

في العقيدة والنفس والتفكير والتعبير وفي الملك والعمل والتجارة. فالله سبحانه يقول: {لا إكراه في الدين} البقرة ٥٦ ويقول لرسوله: {أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين} يونس ٩٩، وبذلك وسع المجتمع النصارى واليهود وكفل لهم حريتهم الدينية.

والإسلام قائم على مناشدة الفطرة للإيمان على أساس من حرية النظر واستقراء آيات الله في الأرض والسماء.

ولا يحجر الاجتهاد على المجتهد بل الله يأمر بالاجتهاد أي القياس والاعتبار وينص على حكم الأحكام ليقيس الناس، والرسول يأمر بالاجتهاد في حضرته وفي غيبته.

وبالفكر الحر بلغ المسلمون في العلوم آخر ما وصل إليه الفكر الإنساني في عصر ازدهارهم، وأرسى الشافعي أسس المنهج العلمي على المنهج القرآني. ومن أئمة الفكر انتقلت حرية الاجتهاد والاختلاف إلى سائر العلوم لتئول تفصيلات حرية النظر إلى أوروبة في القرون الوسطى ثم إلى سائر العصور.

والغزالي يوضح التسامح الإسلامي فيقول: اعلم أن ما يكفر به ولا يكفر به يستدعي تفصيلا طويلا فاقنع الآن بوصية وقانون، أما الوصية فأن تكف عن أهل القبلة ما أمكنك ما داموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله وأما القانون فهو أن تعلم أن النظريات قسمان: قسم يتعلق

بالقواعد، وقسم يتعلق بالفروع. وأصول الإيمان ثلاثة الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وما عداه فروع. واعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلا إلا في مسألة واحدة هي أن ينكر أصلا دينيا من رسول الله بالتواتر. ولكن في بعضها تخطئة كما في الفقهيات وفي بعضها تبديع كالخطأ المتعلق بالإمامة "الخلافة".

ولما حوصر أمير المؤمنين عثمان كان "زعيم المحاصرين له عبد الرحمن بن عدس البلوي يصلي إماما للمحاصرين، وغيرهم يصلون معهم حتى لا تفوتهم صلاة الجماعة. فدخل واحد على أمير المؤمنين فسأله قائلا: إنك إمام الجماعة ونزل بك ما ترى من حصار، ويصلي لنا إمام فتنة ونتحرج بمتابعته فأجاب رضي الله عنه "الصلاة أحسن ما يعمل الإنسان فإذا أحسن الناس فأحسن معهم ولا يضرك كونه مفتونا بجارحة أو اعتقاد: بل إذا أحسن فوافق على إحسانه واترك ما افتتن به".

يقول ﷺ ليحمي الأمة: "من رمى مؤمنا بكفر فهو كقتله".

ومن فقه على أجاب سائله عن شهادة الخوارج عليه – وقد اتهموه بالكفر – (إنما قاتلونا على تأويل فتقبل شهادتهم).

والحرية الشخصية حق طبيعي[٥٦] لا تنزع من إنسان مهما كان وصفه أو دينه. وفي كل حال يعاقب المعتدى عليها ويقتص منه للمظلوم وإن كان غير مسلم. وما تزال دساتير العالم تردد – في صيغ مختلفة مقولة – عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص وهو واليه على مصر" بم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا".

ونقل ابن رشد حرية الفكر إلى أوروبة في القرون الوسطى وقاومته الكنيسة قرنا بتمامه، وحظرت تدريس كتبه، ثم تراجعت أمام صحو شعوبها وبدأت حرية التفكير في أوروبة تأخذ طريقها إلى عقول أهلها عن طريق كتب المسلمين وطريقة حياتهم بالأندلس وصقلية وغيرهما من بلدان المسلمين.

---

(٥٦) مر بنا في الفصل السابق مثل بربرة.

الحرية حق واستعمالها واجب:

يقول تعالى {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر} التوبة ٧١ [المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف} التوبة ٦٧. والمؤمنون خير الأمم بقوله سبحانه {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله} فالأمر بالمعروف واستنكار المنكر فريضتان، وأمر رسول الله بالقيام بهما قاطع. فالمؤمن يغير المنكر بيده أو يعلن رأيه ويطلب تغييره إن لم يقدر. وعلى المغلوب على أمره أن يطوي أضالعه على استنكار صادق فالاستنكار الصادق فرض عين على العاجز.

ورسول الله يحث المسلمين على استعمال حقوقهم، والاستقلال بآرائهم إذ يقول: "لا يكن أحدكم إمعة[٥٧] يقول إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت. ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم".

والمعمعي[٥٨] يجعل الأمة رجراجة. ويترك الظالم على ظلمه، والمظلوم في بأسائه، والظلم دون مقاومة.

ونهي الظالم انتصار للشريعة، ونصر المظلوم نصر لها وله. يقول ﷺ "لينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما. فإن كان ظالما فلينهه وإن كان مظلوما فلينصره".

الشورى واجب ديني:

إذا كانت الحرية أولى الحقوق الطبيعية، فالشورى تتصدر الحقوق الاجتماعية والسياسية يقول الله تعالى {والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون} الشورى ٣٨، فهو تعالى يضع الشورى بين العبادتين التاليتين للإيمان بالله لبيان مكانتها بين حقين لله. فالجماعة تحيا وإن جاعت، ولا حياة لها مع الاستبداد. ولذلك أمر بالشورى ولو أذنب أصحاب الحق فيها، قال تعالى في آل عمران ١٥٩ يثني على رحمة رسول الله بالمخطئين يوم أحد {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم

---

(٥٧) قيل أصلها (إن معه.. وإن معه).

(٥٨) المعنى مع هذا ومع هذا.

وشاورهم في الأمر}[٥٩] والنبي يقول لأمته "ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم" وروي عن أبي هريرة: "ما رأيت أحدا أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ".

استشار صحبه في الخروج إلى بدر، فأجمعوا على الخروج. وأخذ في أحد برأي أغلبية لا يقرها وجاءه يوم خيبر يشير عليه ليختار منزلا أصلح للعسكر فقبل. وأشار السعدان (ابن معاذ وابن عبادة) برفض الصلح مع عيينة بن حصن يوم الخندق فقبل، وكانت إشارة سلمان الفارسي عليه بحفر الخندق من أسباب النصر الذي قال بعده عن قريش والأحزاب: "الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم". فسار إليهم يوم الحديبية. وفيها أخذ بمشورة أم المؤمنين أم سلمة. ومن بعد ذلك نزلت عليه سورة الفتح {إنا فتحنا لك فتحا مبينا} ثم سار إليهم فجاء نصر الله والفتح.

والإسلام براء من الحاكم المستبد وإنما يهلك المستبدون أنفسهم وأهل الإسلام معهم.

الاقتصاد:

والحرية الاقتصادية إحدى الحريات فالله تعالى يقول عن الإنسان في سورة البقرة ٣٠ {إني جاعل في الأرض خليفة} ويضع حدود تكلفه له بقوله في سورة القصص ٧٧ {وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض}.

ويقول عليه الصلاة والسلام: "من ترك ضياعا فإلي وعلي"، ويقول: "أيما أهل عرصة (الساحة بين الدور) بات فيهم مسلم جائعا، فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله"، ويقاس على الجوع العري والخوف والمرض والضرورات ونظائرها.

وعلى أسس القرآن وفي أطر السنة قامت قواعد الاقتصاد، فالمسلمون يملكون ما استخلفهم الله فيه (وهذا التكييف الشرعي أصون للملكية من التعبير القانوني بالوظيفة الاجتماعية) وهم مطالبون بالعمل لينالوا حظوظهم من الدنيا.

وتعاون الجماعة مصقلة تصنع الطمأنينة والأمنة، وتحرك مواهب الأمة فرادى ومجتمعة، يشد بعضها وثاق بعض. لنقرأ شهادة عبد الله بن عمر لمجتمعه: لقد رأيتنا وما الرجل المسلم بأحق بديناره ودرهم من أخيه المسلم.

---

(٥٩) وفي تأويل أمر، تعالى وجوه، لعل أقواها قول سفيان (إنه أمر، بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه المؤمنون وإن كان عن مشورتهم غنيا) وليلاحظ أن الغني عن الشورى هنا هو النبي ﷺ.

ورسول الله يبارك المال المكتسب من جله إذ يستعمل في محله، ويقول: "نعم المال الصالح للرجل الصالح" ويعلن أن العون إلهي إذا تعاضد الناس: "الله في عون العبد مادام في عون أخيه".

والاقتصاد قوامه العمل والتعاون، ومن العمل استغلال رأس المال دون ربا، والتراضي دون غلط أو غش أو غبن أو مغالبة.

ومن الصحابة من أثروا بالتجارة، ومن أغناهم الله بالعمل، وكل قد عرف الله منزلته. أثرى عثمان وطلحة وعبد الرحمن والزبير من تجاراتهم، واكتفى أبو بكر منها بما يعول أهله، وعمل عمر وعلي والباقون ليعيشوا. وكلهم جعلوا أموالهم في خدمة الجماعة.

ووسائل الكسب الحلال مشروعة، ولكل حاصل ما يكسبه أويرثه.

ونظام الميراث في الإسلام، ذروة العدل في الأقرباء، وإنصاف الرجال والنساء، وكن يمنعن الميراث في الجاهلية، وبه يتم توزيع الثروات وتجزئتها.

والناس أحرار في تجاراتهم وأعمالهم: قيل له يا رسول الله سعر لنا. قال (إن الله هو المسعر والقابض البساط الرازق. وإني أرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة في دم أو مال).

ولما أصابت الأسعار آفة الاحتكار سعر المسلمون.

والتجارة حرة وأسواقها محل رقابة. فرسول الله يمر بالأسواق ويكلف من يمر بها.

مر عليه الصلاة والسلام على صبرة طعام فأدخل فيها يده فنالت بللا. فقال: "يا صاحب الطعام ما هذا؟" قال الرجل: أصابته السماء يا رسول الله. قال: "أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس" ثم قال (من غشنا فليس منا).

ولا تكفيه نزاهة التعامل في الظاهر، فهو ينشئ المجتمع النموذجي: شهد اثنين يتبايعان فقال لهما: "رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء سهل الأخذ سهل العطاء سهل القضاء" فهو يأمر بالمساهلة في كل مرحلة. بل يأمر بها في باطن المعاملة، ليتعاون المشتري والبائع في الحق ولا يتماسكا بباطل.

جاءته قيلة الأنمارية تقول: إني أشتري وأبيع. إذا بعت أستام بالسلعة أكثر ثم أنقص حتى أبيعها لمن أريد. وإذا اشتريت أعطيت السلعة أقل حتى آخذها بما أريد. قال ﷺ "لا تفعلي قيلة. إذا أردت أن تشتري السلعة فاستامي بها الذي تريدين أن تأخذي به أعطيت أو منعت".

وبورك لهذا المجتمع في كل وجه:

ففي ذات يوم خطب رسول الله (أيها الناس أريد أن أبعث بعثا فاجمعوا صدقاتكم) فجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية من ذهب قيمتها أربعة آلاف درهم وجاء عاصم العجلاني بمائة وستين وسقا من تمر وجاء الحباب أو عقيل بصاع من تمر حصله من إيجار نفسه. وهو حقيق بقول رسول الله (خير الناس مؤمن فقير يعطي جهده).

والإسراف في استعمال الحلال منقصة. يقول ﷺ لجابر بن عبد الله إذ رآه يتوضأ فيسرف (لا إسراف في الماء وإن كنت على نهر جار).

والناس أحرار في إنشاء عقودهم إلا أن تصيبها عيوب الرضا أو يكون فيها ربا وإنما يعملون بعقولهم كما يعملون بأيديهم.

وكان رسول الله ﷺ وهابة يهب ويتهب ليهب. ويستدين ليهب، أو ليعول أهله، برهن وغير رهن ويستعير ويضمن غيره ويفي بالضمان ويؤدي من بيت المال دين من يموت عن غير مال.

وليست البحبحة إذا سنحت نقيضا للقناعة التي يبشر بها النبي أصحاب الكفاف فيقول (طوبى لمن كان عيشه كفافا وقنع) فهو مع ذلك يقول (إذا وسع الله عليكم فأوسعوا على أنفسكم). والأصل قوله (من أصبح آمنا في سربه معافى في بدينه عنده قوت يومه فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها).

العمل:

والعمل أداة الاقتصاد الأولى للمسلمين والرسول يقول (لأن يأخذ أحدكم الحبل فيجئ بحزمة حطب على عاتقه فيبيعها فيستغنى بأجرها خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه) ويؤيد ذلك بمثل من الأنبياء (ما أكل أحد قط طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده).

ويؤكد ذلك بصنيعه إذ جاءه رجل يشكو حاجته فأمره أن يبحث عن شئ يملك أن يبيعه فلم يجد إلا قدحا فنادى رسول الله: "من يشترى القدح"؟ وجرى المزاد حتى بلغ ثمن القدح درهمين

أعطاهما الرجل وأمر أن يشتري بواحد منهما طعاما لأهله ويشتري بالثاني فأسا وألا يدع شوكا ولا حطبا، ففعل وعاد وهو ذو مال. قال ﷺ "هذا خيرا من أن تأتي يوم القيامة في وجهك نكتة (نقطة) من المسألة" وأي خير: لقد علمه أن يحتطب ويكسب، كمن علم رجلا أن يصيد السمك، ولم يكتف بإعطائه سمكة يطعمها ثم يعود يسأل!

ولما أثنى صحبه على رجل يذكر الله سألهم: "من كان يكفيه علف بعيره"؟ قالوا: كلنا قال: "كلكم خير منه".

ولما قيل له إن فلانا ورمت يده من كثرة العمل قال: "هذه يد يحبها الله ورسوله".

وأهاب بالفقراء: "يا معشر الفقراء، ارفعوا رءوسكم، فقد وضح الطريق فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا على المسلمين". وأهاب بالمسلمين أجمعين: "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو بهيمة إلا كانت صدقة" و "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر".

وينبه التجار على الصدق والأمانة بقوله: "التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء".

وعلى هذه القواعد رأينا الصحابة العظماء يعملون في أموالهم أو أموال الناس بأجر. وأئمة الفقه يتجرون أو يرابحون وحملت أسماء الصناعات أسماء الفقهاء ووصى علماء الصحابة نساءهم بالعمل:

سألت أم الدرداء زوجها: هل تأكل الصدقة بعده؟ فأجاب لا. اعملي وكلي. فإن ضعفت عن العمل فالتقطي السنبل ولا تأكلي الصدقة.

ولما مات أبو الدرداء كان معاوية أميرا للمؤمنين فخطب زوجته لنفسه فرفضته قائلة: "لا أغير على أبي الدرداء".

الزكاة:

والزكاة والصدقات أداة المعدلة في الميزان الاجتماعي والاقتصادي معا. فهي طهرة للمال وتزكية للأنفس وقيام بحقوق المستحقين. والله تعالى يقول: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم} فهو يقرن الزكاة بالصلاة والسكن لهم، ولقد حبب رسول الله إلى المسلمين نعمة الصدقة بالحث الدءوب في مواقف لا تحصى وبعبارات لا تنسى: يسألهم

ذات يوم: "أيكم مال وارثه أحب من ماله؟"، فيجيبون ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، فيقول لهم: "فإن ماله ما قدم، موال وارثه ما أخر".

ويشرح القول بالعمل حين دخل على أم المؤمنين عائشة بعد أن ذبحت شاة وفرقتها في الناس فقالت له: لم يبق منها إلا قطعة نأكل منها فأجابها: "بل كلها أمسكت إلا هذا".

وتبارى المسلمون ليمتوا بالأسباب إلى أهل الجنة. وهم شهود أفعاله حفاظ أقواله: "اطلعت على الجنة فوجدت أكثر أهلها الفقراء".

وتجارى الأقرباء في صلة ذوي الأرحام لقوله: "الصدقة على الفقير صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة".

وبين رسول الله موارد ما وجب من الزكاة ليحقق سهولة تطبيقها، فيما فرضه الله من مصارفها بقوله: {للفقراء والمساكين[٦٠] والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل} التوبة ٦٠.

وفيما عدا الواجب بالزكاة تتسع دائرة الصدقات حتى تشمل الكلمة الطيبة، ومنها حسن المعاملة وعلاقة الرجل وزوجته، وتتكاثر أنواع الصدقات في وجوه المعاملات بالسماحة والرحمة لتشمل القرض الحسن وانتظار الميسرة.

ويضمن رسول الله للمنفق نماء ماله أو بقاءه على حاله إذا أنفق في سبيل الله منه فيقول: "ما نقصت صدقة من مال"، وعمل صحبه بهذه السنة فكانوا ينفقون وهم فقراء فيغنيهم الله من فضله.

والأقدمون يقولون: "ما المعطي عن سعة بأفضل من الأخذ لو كان محتاجا"، فكل منهما يعمل بمال الله.

---

(٦٠) في تعريف الفقير والمسكين أقوال:

١- الفقير عنده بلغة من العيش والمسكين لا شئ عنده.

٢- المسكين أحسن حالا من الفقير.

٣- الفقير أءسن حالا من المسلكين.

٤- الفقير من لا شئ عنده ومثله المسكين.

ويقول بعض الفقهاء إذا اجتمعا افترقا في المعنى وإذا افترقا فهما سواء.

والدولة والسلف الصالح لا يقفون عند حد ضمان الكفاف للمسلم بل يعطون من يملك عشرة آلاف درهم فيها الفرس السلاح وله الخادم والدار إذا سد العطاء حوائج ليس منها بد. فلقد يكون الرجل غنيا بدرهم واحد، إذا كان عاملا يتكسب، ولا يكون غنيا بألف درهم مع ضعف نفسه وكثرة عياله. والفقير ذو الحرفة يعطي ما يمكنه من حرفته وإن كان آلافا. ومن يحتاج إلى عشرة دراهم ولا يجد إلا أربعة فهو فقير.

ورسول الله يعلن حق الجميع حيث يقول: "إنما أنا قاسم والله معطي"، ويهنئ قلب من يأخذ بما يهيئ به وجه من يعطي، فيقول للناس: "إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعه منكم بسط الوجه وحسن الخلق".

أبو ذر:

كان أبو ذر يرى أنه لا يجوز ادخار الذهب والفضة بعد أداء زكاتهما، ويحتج بظاهر قوله تعالى {والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون} وبقول رسول الله: "ما يسرني أن لي أحدا (جبل أحد) ذهبا تأتي علي ثالثة (ليلة ثالثة) وعندي منه دينار إلا دينارا أرصده لدين علي".

والمسلمون على أن الإنفاق بعد الزكاة على سبيل الترغيب ولذلك قبل النبي من أبي بكر التصدق بجميع ماله. ورد على من جاءه ببيضة من ذهب، هي كل ماله، يتصدق بها. فهذه درجة فضل لا يستطيعها كل الناس.

ولما حاصر بني قريظة لخيانتهم طلبوا إليه أن يبعث إليهم أبا لبابة ليستشيروه – وكان من الأوس حلفائهم قبل الإسلام – فذهب إليهم وبدرت منه إشارة إلى أنهم سيذبحون. وأحس بأنه ربما خان رسول الله، فلما رجع ربط نفسه بسلسلة إلى عمود المسجد بضع عشرة ليلة لا يذوق طعاما وتحله امرأته إذا حان وقت الصلاة، ويعود فيسلسل بعدها في انتظار أن يتوب الله عليه. فلما تاب الله عليه نذر أن يخرج كل ماله في بني قريظة. قال رسول الله ﷺ (يكفي الثلث).

واشتد أبو ذر على معاوية وهو والي الشام فشكاه لأمير المؤمنين عثمان، فدعاه فقال له" يا أبا ذر علي أن أقضي ما علي وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد. وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد"، وخرج أبو ذر إلى الربذة وأعطاه عثمان إبلا ومملوكين. وأرسل إليه ليقدم

المدينة من وقت لآخر حتى لا يرتد أعرابيا وينقطع عن الصحابة في المدينة، فبنى أبو ذر مسجدا بالربذة، وبقى بها حتى توفي في السنة الثامنة من خلافة عثمان.

الأسرة:

نهج الإسلام بنيان افرد الصالح ليصلح "مجتمعه الصغير" وهو الأسرة. والأسرة قوام المجتمع الكبير.

وحث ﷺ على تكوين الأسرة بقوله: "من استطاع منكم الباءة فليتزوج" وقوله: "ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة: إذا نظر إليها سرته، وإذا غاب عنها حفظته، وإذا أمرها أطاعته".

وتظهرنا خطبته التي رواها ابن مسعود قبل عقد الزواج على القواعد الإلهية التي يريد أن يقوم عليها قواعد "المجتمع الصغير" الجديد "الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بشيرا ونذيرا بين يدي الساعة.

من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا.

{يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا}.

{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون}.

{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا. يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما}".

ثم يعقد الزواج.

* * *

كانوا في الجاهلية يعددون الزوجات إلى غير حد. فقصر الإسلام العدد على أربع، واشترط العدل بينهن، وطبق النبي في زواجه شرع الله بما يعلم أمته: فهو قد اقتصر على واحدة لم يتزوج عليها طوال حياتها معه نحو ربع قرن في شبابه وكهولته. فلما ماتت كان قد تخطى الخمسين. وكان

لكل زواج جديد أسباب معلومة. فأحصن نفسه وأحصن الزوجات وألف قلوب قومهن ودفع الأذى عنهن.

وبالمساواة بين الرجل والمرأة فاجأت الشريعة الإسلامية غيرها من المجتمعات، وكما جعل رسول الله الزواج سنته كان العدل بين زوجاته واحترام المرأة بوجه عام، أسوة حسنة لأمته. وبنظام الأسرة سما المجتمع الإسلامي وما يزال.

فالزواج لا يتم إلا برضا المرأة. لقد رفضت أم كلثوم بنت أبي بكر بعد موت أبيها أن تتزوج من عمر وهو أمير المؤمنين قالت: "إن عمر خشن العيش شديد على النساء". ورفضت الزواج منه أم أبان بنت عتبة بن ربيعة قائلة: "أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه كأنه ينظر إلى ربه بعينيه".

وأي حرية شخصية واحترام للخصوصية أوسع من هذه الحرية التي أتاحت لاثنتين من الطاهرات القانتات رفض أمير المؤمنين عمر... من جراء عظم فضائله!!

والرسول يضع الدين والخلق في مقدمة الشروط لإنشاء الزواج واستمراره بقوله: "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير"، وفي صدد المعاشرة يكرر حكم القرآن فيأمر المسلمين أمره الصريح: "لا يفرك (يبغض) مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضى منها خلقا آخر"، وهو هنا يأمر الاثنين بحسن الخلق. وتنفيذا لذلك نهر عمر رجلا جاء يفضي إليه بأنه سيطلق امرأته لأنه لا يحبها وقال له: "ألم تبن البيوت إلا على الحب".

والله تعالى يقول: {وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا} النساء ١٩. ورسول الله عليه الصلاة والسلام يقول (أبغض الحلال إلى الله الطلاق).

ولقد ميز الإسلام المرأة بامتيازات كثيرة. منها أنه جعل نفقة الزوجة وبنيها على أبيهم، فكفل لهم آثار سعيه في الدنيا. وميزها بأنه جعل لأكثر من واحدة، حتى أربعة، حق الزواج برجل واحد ليحفظ عليهن العفاف فيحصن الرجل الواحد أربعة منهن، ويكفل نفقتهن وسكناهن، ورضاع البنين ونفقتهم.

وأشاد رسول الله في غير موضع بحسن تبعل المرأة لزوجها ورضاه عنها لتوثيق صلة الزوجين.

وفي الوقت ذاته جعل الشارع للمرأة طلب الطلاق للضرر، وأن تشترط الشروط الشرعية لحسابها في عقد الزواج، كأن تشترط عدم الزواج عليها. فإذا تزوج كان لها حق طلب الطلاق. وقد تشترط العصمة لنفسها فتحل عقدة الزوجية،وامتازت بحقوق أخرى مثل احتفاظها بدينها لو كانت

ذات دين آخر واحتفاظها بأموالها وباسمها، وجعل المهر حقا لها بدون اشتراط. وأباح لها حق العمل بإذن زوجها فيما يتفق مع طبيعتها وحاجات أسرتها وحفظ لها حريتها الدينية والفكرية، وإبداء الرأي في الحكم والبيعة العامة، وحرية الإرادة القانونية للتعاقد، وحرية الجهاد عند الحاجة، وحرية طلب العلم والجلوس للتعليم والتعلم.

وفي كل ذلك يسبق الإسلام دول أوروبة الحالية بقرون.

وينهى عليه الصلاة والسلام عن تعذيب الرجل زوجته، ويذكر بما بينهما من مودة ورحمة فيقول: "لا يجلد أحد منكم امرأته جلد العبد، ثم يجامعها آخر اليوم"، وفي هذا التشبيه احترام للزوجية وتحقير للجلد وإشفاق على الرقيق. وقد أهمه ﷺ احترام خصوصيات الزوجات ومن ذلك قوله ﷺ: "إن من شر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر أحدهما سر صاحبه".

يقول تعالى في سورة النساء: {فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة} وفي السورة ذاتها {ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم} ومن الآيتين وجبت التسوية بينهن في النفقة والمأكل والملبس وقسم الإقامة بالسوية أما الميل القلبي فهذا هو الجبلي الذي لا استطاعة لدفعه ومن أجله كان الرسول ﷺ يقول: "اللهم هذا قسمي فيما أملك فاغفر لي فيما تملك ولا أملك".

وهو بذلك يؤكد واجب العدل في علاقة يحاسب عليها الله سبحانه.

فإذا وقع الطلاق كان للمرأة تعويضات، لها نصف الصداق إن وقع قبل الدخول بها، وكل الصداق إن وقع بعده، وإذا آتاها قنطارا من المال لم يسترده، لقوله تعالى: {وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا} النساء ٢١ وقرر الله لها المتعة {ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف} البقرة ٢٣٦ وللكمال بن الهمام (٨٦١) مقولة عصرية أبدا (شرع الله الطلاق للخلاص عند تباين الأخلاق وعروض البغضاء الموجبة عدم إقامة حدود الله تعالى.. فإذا لم تكن حاجة فهو محض كفران نعمة وسوء أدب).

* * *

وتعد الزوجات حق للرجال وللنساء نزل القرآن به. ولو امتنع القرآن لكان الاضطرار إليه أو ممارسته خروجا على الدين وإشاعة للفاحشة. كما نشهد الآن في مجتمعات غير إسلامية. ومن المجتمعات ما تضطرها حاجات الحياة الأساسية للتعدد ومنها ما لا يحتاج إليه. وتحريم التعدد حرمان لنساء ثلاث من الإحصان ومن سائر حقوق الزوجات وهو خلل تحاول بعض الملل أو

الدول تداركه. ولهذا نسمع في الأمم الغربية الكثير عن علاقات الزوج أو الزوجة أو هما بغير الزوج أو الزوجة، علانية أو تحت سقف واحد.

فتقرير مبدأ التعدد شهادة للتكافل في الإسلام والفضيلة في مجتمعاته.

وفي مواقف مشهورة كرم رسول الله الحياة الزوجية لتدوم. وأثبت تكريمه جدواه. إليك أمثالا. الأول عندما بعثت بنته زينب في فداء زوجها أبي العاص قلادة أدخلتها بها عليه خديجة. وقال للمسلمين: "إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها، فافعلوا"، قالوا نعم، وشرط عليه رسول الله أن يرسلها من مكة، فوفى بعهده وبقى بمكة على شركه. والثاني عندما أسرت سرية زيد بن حارثة قافلة تجارات قريش، وهرب منها أبو العاص فلحق بالمدينة واستجار بزينب فأجارته، وأجاز المسلمون جوارها،وعفوا عنه وعن أموال قافلته، فعاد إلى مكة وسلم الناس أموالهم وأعلن إسلامه وهاجر إلى المدينة.

قيل: بقيت الزوجية بالزاج الأول وقيل بزواج جديد.

والثالث عندما فتح الله عليه ﷺ مكة، وفرع عكرمة بن أب يجهل في حين أسلمت زوجته أم حكيم، ثم خفت إليه بأمان من النبي فعاد من مهربه إلى اليمن ليسلم وليكون بطل حروب الإسلام في عمان واليمن والشام، وستكون أم حكيم من أبطال معركة مرج الصفر.

والرابع يوم الفتح كذلك عندما أسلمت زوجة صفوان بن أمية وطلبت أمانا له فأمنه النبي واستعار منه سلاحا وصحبه في حنين والطائف وألف قلبه بالعطاء فأسلم وبقى زواجه.

القانون الدولي الإسلامي أو الأسرة العالمية:

ترك رسول الله ﷺ الدنيا وقد كملت الشريعة، ولذلك وضعت أصول القانون الدولي الإسلامي في عصر الرسالة بالقرآن والسنة، وبمعاهداته ﷺ وصلحه ووصاياه وتطبيقاته في حربه وسلمه، كما سنرى في صفحات تالية، لم تزدها العصور إلا تطبيقات.

يقول تعالى: {وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا} ويقول: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} ويقول: {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله} المائدة ٨ ويقول تبارك وتعالى: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين} الأنفال ٥٨.

فالوفاء بالعهد والعدل حتى مع العدو أصلان إسلاميان، وبالوفاء نعم الذميون في ديار الإسلام وبالعدل كانت الحرب دفاعية لصد العدوان فلا يقاتل إلا مقاتل، وحظر إتلاف الأموال إلا أن تكون قوة للمحارب على المسلمين،ووجب الجنوح إلى السلم إذا جنح إليها العدو(٦١).

وسبقت تشريعات الحرب الإسلامية اتفاقيات الصليب الأحمر بالأمم المتحدة بأكثر من ثلاثة عشر قرنا من هجرة رسول الله، فبلغ تكريم الأسرى أن يؤثرهم المسلمون على أنفسهم وبهم الخصاصة، تنفيذا لقوله تعالى: {ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا} ولقول رسول الله لهم "استوصوا بالأسارى خيرا".

ومن أوامره إلى سراياه: "لا تقتلوا وليدا ولا تغلوا ولا تمثلوا"، وأوامره ﷺ ألا تفصل أسيرة عن ولدها، وأن يدعوا العدو للإسلام بقوله: "إذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى الإسلام. فإن أسلموا فاقبلوا منهم وخلوا عنهم، وادعوهم إلى التحول من ديارهم إلى ديار المهاجرين. فإن قبلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم وإلا أخبروهم أنهم كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الإسلام الذي يجري على المسلمين. وليس لهم في الفئ ولا في الغنيمة. فإن أبوا فادعوهم إلى إعطاء الجزية فإن تحولوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم".

ولقد رد المسلمون الجزية على من صالحوهم حينما خافوا من هجوم للعدو أن يمنعهم حماية من صالحوهم، ولقى أهل الذمة من العدو، وهو من دينهم، ما ذكرهم بعدل المسلمين. فلما انهزم العدو سارع أهل الذمة يعلنون حسن جوارهم ويدفعون الجزية.

وبعد أقل من قرنين سأل الرشيد محمد بن الحسن (١٨٩) (صاحب أبي حنيفة) (١٥٠هـ) عن إخلال النصارى بصلح التزموا فيه بعدم تنصير مواليدهم فنصروهم بعد ذلك. قال محمد: فقلت: إن عمر أمرهم بذلك وقد نصروا أولادهم بعد عمر، واحتمل ذلك عثمان وابن عمك – يقصد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – وهو من العلم بما لا خفاء له عليك، وجرت على هذا السنن فهذا صلح من الخلفاء بعده. لا شئ يلحقك في ذلك وقد كشفت لك العلم، ورأيك أعلى.

قال الرشيد لا. مثلي لا يخرج على العلم. ولكنا نجريه على ما أجروه إن شاء الله جل شأنه. أمر نبيه بالمشورة تماما لما به من الأخلاق(٦٢).

---

(٦١) وسنقرأ بالفصل الأول من الباب الرابع خمسة عشر أصلا إسلاميا في الحرب من وصايا رسول الله إلى جنده نفذها قواده، لو اتبعها العالم المعاصر لحل السلام بالأرض من خشية الله ولا تكاد تبلغ بعضها آمال لجان "الأمم المتحدة".

واليهودية لا تحرم الحرب بل تمجدها، والرب فيها رب الانتقام، والرب في المسيحية رب السلام ولذلك حاربها الرومان حتى إذا ألف القديس أوغسطين في القرن الميلادي الرابع مؤلفين قال فيهما: إن الحرب من أعمال القضاء العادل "المنتقم" الذي يضمن السلام"!!". أباح الرومان المسيحية في دولتهم.

وأين هذا كله من دين لا يأذن بالحرب إلا إذا كانت للدفاع ويجعل للذمي وعليه مثل ما للمسلم وما عليه، ويعترف بالمسيحية واليهودية وهما لا تعترفان به. ويأمر بجدال أصحابهما بالتي هي أحسن، وينهى عن الإكراه في الدين ولهذا أزال عمر بن الخطاب التراب عن هيكل لليهود دفنه الرومان ودعاهم ليتعبدوا فيه. وحافظ على كنيسة النصارى حتى لا ينازعهم فيها أحد، وأعطاهم

---

(٦٢) وسنقرأ في الفصل الأخير من الباب الخامس من تعليمات الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، لقوادهم وولاتهم في البلاد المفتوحة، مصادر شارحة للشريعة في الحرب والسلم، وتنظيم الحكم في الداخل والخارج. واتخذ الفقهاء أعمال وأقوال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في حروبه وسلمه تطبيقات معلمة للقانون الدولي في الحرب ومعاملة العدو ومن ذلك الأمثال التالية:

جئ بموسى بن طلحة أسيرا بعد موقعة "الجمل"، فخلى أمير المؤمنين علي سبيله، وأمر، أن يستغفر ربه ويتوب إليه، وقال له: "اذهب حيث شئت وما وجدت في عسكرنا لك من سلاح أو كراع (خيل) فخذه، واتق الله فيما تستقبله من أمرك، واجلس في بيتك".

وكذلك صنع بعبد الله بن الزبير.

ولما سبق جيش معاوية إلى ماء الفرات منع من الماء جيش أمير المؤمنين علي فأمر علي بالاستيلاء على مواقع الماء وقال لجنده: "خذوا من الماء حاجتكم وخلوا عنهم فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم".

ومن خطبه في الحرب "أيها الناس. أنشدكم الله ألا تقتلوا مدبرا، ولا تجهزن على جريح، ولا تستحلوا سبيا، ولا تأخذوا سلاحا ولا متاعا". وبعد انتصار، أعلن العفو عن أعدائه.

وفي عهده لواليه على مصر المثل الإسلامية العالية للحكم والإدارة والاقتصاد والتسامح مع غير المسلمين من أهل البلاد. يقول له عنهم: "وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا يغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لكفي الخلق يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل.. فأعطهم من عفوك وصفحك، مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله".

ولما طعنه ابن ملجم قال لولديه الحسن والحسين: خذوا هذا (الأسير)، فأطعموه واسقوه وأحسنوا إسار، فإن عشت فأنا أولى بما صنع في إن شئت استقدت وإن شئت صالحت، فإن مت فذاك إليكم، وإن كان الحكم لكم أن تقتلوه فلا تمثلوا به.

وإنما كان رضي الله عنه يخاطب بهذا الإنسانية كافة والزمان كله.

عهد إيلياء الشهير، سنة[٦٣] ١٥. فذلك مبدأ الإسلام في حرية الأديان واحترام حقوق الإنسان، وبه دخل أهل البلاد المفتوحة في دين الله أفواجا.

ولم يبلغ القانون الدولي المعاصر للآن مبلغ ما وضعه الإسلام من قواعد الحرب والسلام، وطبقه المسلمون في حروبهم، حتى إذا كانت سنة ١٩٤٩م من نحو أربعين سنة وقعت الدول معاهدات جنيف لتحسين حال الجرحى والمرضى من القوات المسلحة في ميدان القتال، وسبقتها بعشرات السنين ولحقتها بسنين معاهدات لتخفيف ويلات الحروب.

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية صدر التصريح العالمي لحقوق الإنسان وهي أضيق مدى من حقوق الإنسان في الإسلام فهذه الحقوق واجبة دون حاجة إلى تشريعات وضعية، ولم يؤلف كتاب في القانون الدولي في أوروبا إلا منذ قرنين ككتاب جروشس في حين صدرت مؤلفات تبدأ بكتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن قبل جروشس بنحو ثمانمائة عام.

ولما غزا الصليبيون ديار المسلمين تعلموا بعض مبادئ الحرب والسلام من جيوش المسلمين ولم يعملوا بها. لكن محاكم التفتيش غطت بذبح مئات آلاف من المسلمين على غيرها من فظائع التاريخ طوال القرون، حتى عقدت معاهدة لاهاي الخاصة باستعمال الأسلحة سنة ١٩٠٧.

---

(٦٣) فيما يلي نص هذا العهد الشهير في تاريخ بيت المقدس وعدل الإسلام [بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان. أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها. أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم ولا يكرهون على دينهم. ولا يضار أحد منهم. ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أراد أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان. فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية. ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان}..

وكان النص على ألا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود شرطا شرطه البطريرك صفرونيوس وهو الذي سلم (بيت المقدس).

وفي النصف الثاني من القرن العشرين للميلاد تتابعت محاولات لتقنين قوانين البحار والتمثيل السياسي ولمنع الإرهاب الدولي وما يزال منبر الأمم المتحدة يعلن المنازعات فيها وفي غيرها بما لا يبعث الأمل في مستقبل أفضل.

obeikandl.com